ردود القرآن على ذوي الجحود والإنكار

د. أحمد بن أحمد شرشال *

---

* مدرس في قسم التفسير والحديث - كلية الشريعة جامعة الكويت.

ملخص البحث:

القرآن الكريم معينه لا ينضب، ولا يخلق على كثره الرد، ولا تنقض عجائبه، فقد جوى علوما جليلة، ومن بين هذه العلوم: «ردود القرآن على ذوي الجحود والإنكار»، فقد حفل كتاب الله بهذا النوع من علوم القرآن، ولم يترك القرآن تلك الشبهات والاعتراضات والاقتراحات والطعون التي أثارها المنكرون والجاحدون بدون جواب، بل أنزل الله آيات بينات، لتنيدها وبحضها بالأدلة والبراهين المنوعة، وإزالة آثارها من نفوس المؤمنين، ولقنهم الإجابة الشافية.

وردود القرآن ومناقشاته تختلف عن جدل المجادلين، ولا ينبغي أن تقحم في باب الجدل المنطقي للمتكلمين، فإن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع، وما جاء فيه من أدلة وبراهين ومناقشات هو نوع من أنواع البيان القرآني فحسب، وإذا وجد منه ما يفهم الجدل في بعض الأدلة والبراهين، فذلك غير مقصود كالآيات التي جاءت موزونة على نمط الشعر، وكالآيات التي جاءت مسجوعة ومع هذا لا يقال بسبب وجود هذا أو ذاك: إن القرآن من قبيل الشعر، أو من قبيل السجع، فكذلك الآيات التي جاءت فيها براهين وأدلة، ووافقت مناهج الجدل للمتكلمين، فإننا لا نسميه الجدل القرآني، وإنما هو بيان وتفسير وردود، وستظل تلك الأحوال النادرة مندرجة تحت البيان القرآني، وهو أوسع مدلولا من جدل المتكلمين، فحجج الله وبراهينه واضحة جلية، يفهمها المخاطب، ولا تحتاج إلى كد الذهن وإعمال الفكر.

وأهمية هذا الموضوع كبيرة وصلته بالقرآن كصلة الفرع بالأصل، بل إن علاقته بالقرآن كعلاقة الجزء بالكل، وقد شغل حيزاً كبيراً من كتاب الله تعالى، وإن ردود القرآن على مفتريات ذوي الجحود والإنكار أبلغ الردود وأصدقها وأحكمها وتضمنت حججاً عقلية يذعن لها المخاطب وينقاد.

وإن الشبهات التي أثارها الجاحدون، ويثيرها أعداء الإسلام من وقت نزول القرآن وإلى يومنا هذا، وإلى يوم الدين هي في جملتها متشابهة، لا تخرج عن شبه السالفين ومنكراتهم؛ لأن المكذبين والجاحدين في كل زمان ومكان يتشابهون في الطباع كما قرره القرآن، ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام إلا

وفي القرآن العظيم الرد القاطع والبيان الشافي، وإذا تتبعت آيات الرحمن وجدتها قد أتت بعدد كبير من شبه المنكرين والجاحدين واعتراضاتهم ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوجز لفظ وأبلغه.

فإن المنكرين والجاحدين جاءوا بكلمات في حق الله تعالى، وجاءوا بكلمات في حق ملائكته، ووصفوا الرسول بأوصاف، ونعتوه بنعوت شتى، فأفاض القرآن في رد هذه المفتريات، ودفع هذه الشبهات، وأجاب عنها بأسلوب واقعي حيث ساق لهم الحقائق بطريقة يغلب عليها طابع الموازنة والاستشهاد بالواقع وضرب لهم الأمثال من أنفسهم ورد دعاويهم الباطلة.

ثم انتقلت ردود القرآن إلى دفع شبهاتهم حول ذات الرسول ورسالته، وفند جميع مزاعمهم، وإن هذه الدعاوى والأمثال التي ضربوها للنبي - ﷺ - والاقتراحات والاعتراضات تظهر عليها الحيرة والاضطراب والتناقض العجيب والتنافر المعيب «فهم في أمر مريج».

ثم عالج القرآن نفيهم وإنكارهم للبعث والنشور بوسائل وطرق شتى عالج شبهاتهم بالدليل القاطع، والبرهان الساطع، والحجة الدامغة، والتذكير البالغ، تارة بلفت أنظارهم إلى خلق أكبر من خلقهم، وأخرى يذكرهم بأنفسهم وأطوار نشأتهم، وتارة أخرى يوجههم إلى ما تخرجه الأرض الميتة من الزروع والثمار، ومرة أخرى بأخبار الله الصادقة المؤكدة، وإذا لم يفلح هذا ولا ذاك مع طائفة بالغوا في الجحود والإنكار انتقلت ردود القرآن معهم إلى أسلوب التحدي والتعجيز، بأن يكونوا حجارة أو حديداً، أو خلقاً آخر مما يعظم عندهم، مما هو أشد صلابة منهم، فسيعيدهم الذي فطرهم أول مرة، وحينئذ ينغضون رؤسهم، والله أعلم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تمهيد:

إني لا أزال – بعون الله وتوفيقه – أواصل الحديث عن بعض الجوانب المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه ضمن سلسلة الدراسات القرآنية(١) فالقرآن معينه لا ينضب، ولا يخلق على كثرة الرّد، ولا تنقضي عجائبه.

وفي هذه المرة أبين بحول الله وقوته علماً جليلاً من بين علوم كثيرة حواها كتاب الله عز وجل، ولم يفطن إليه كثير من الناس، سوى ما أشار إليه الإمام عبدالحميد بن باديس، وأعنى به: «ردود القرآن على ذوي الجحود والإنكار»، فقد حفل كتاب الله تعالى بهذا النوع من علوم القرآن، ولم يترك القرآن تلك الشبهات والاعتراضات والاقتراحات والطعون التي أثارها المنكرون والجاحدون بدون جواب، بل أنزل الله تعالى آيات بينات لتفنيدها ودحضها بالأدلة والبراهين المنوعة وإزالة آثارها من نفوس المؤمنين، ولقنهم الإجابة الشافية لشبه المعاندين من المشركين واليهود والنصارى، وقد سمَّيت هذا البحث بعنوان: «ردود القرآن على ذوي الجحود والإنكار»، والله أسأل العون والتوفيق والرشاد.

أسباب اختياري لهذا البحث:

وسبب اختياري لهذا النوع من علوم القرآن رغبتي وشغفي بالقرآن وعلومه، ومحاولة التفقه فيه بالتأمل والتدبر، وقد خلت كتب علوم القرآن من هذا اللون، فلم يذكره جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ ضمن الأنواع التي ذكرها في كتابه الإتقان في علوم القرآن، حيث ذكر ثمانين علماً، ولم يكن من بينها، كما لم يذكره في كتابه التحبير في علم التفسير، حيث ذكر أكثر من مائة علم، كما لم يلتفت إليه السابقون عليه: كالإمام بدر الدين الزركشي ت ٧٩٤هـ في كتابه البرهان في علوم القرآن، كما لم يذكره جلال الدين البلقيني في كتابه مواقع العلوم من مواقع النجوم.(٢)

---

(١) مجلة المرابطون العدد الثاني والثالث. مجلة علمية يصدرها معهد العلوم الإسلامية والعربية بموريتانيا.

(٢) أنظر التحبير في علم التفسير للسيوطي والبرهان في علوم القرآن للزركشي.

ومن الأسباب التي حملتني على متابعة هذا البحث في كتاب الله، هو أن بعض الناس أقحم ردود القرآن وبيانه ومناقشاته في باب الجدل، ثم لما رأى تشابهاً بين هذا الجدل القرآني والجدل المنطقي للمتكلمين وغيرهم راح يثبت وينفي ما يراه مناسباً للجدل القرآني، وينزهه عن قواعد المتكلمين وقياساتهم.[1]

ومن ثم قوي عزمي وحزمي على التأمل في كتاب الله، لبحث هذا الموضوع، وإن القرآن كتاب هداية وإرشاداً وتوجيهاً، وما جاء فيه من ردود ومناقشات للمعاندين والمنكرين هو نوع من أنواع البيان القرآني فحسب **﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾**، وإذا وجد فيه ما يفهم منه الجدل، فذلك غير مقصود منه جدل المناطقة والمتكلمين، كالآيات التي جاءت موزونة على نمط الشعر، وكالآيات التي جاءت مسجوعة، ومع هذا لا يقال بسبب وجود هذا أو ذاك: إن القرآن من قبيل الشعر أو من قبيل السجع، فكذلك الآيات التي جاءت فيها براهين وأدلة، ووافقت مناهج الجدل، فإننا لا نسميه الجدل القرآني، وإنما هو بيان وتفسير وردود، لأن الجدل يقوم على المعاندة والمخاصمة والمنازعة والمغالبة،[2] ولا شك أن هناك حالات تستدعي ذلك، ولكن ستظل هذه الأحوال النادرة مندرجة تحت البيان القرآني وهو أوسع مدلولاً من الجدل، وأعم من جدل المتكلمين.

فأدلة القرآن وردوده يفهمها عامة النّاس وينتفعون بها، ولا يكلفون أنفسهم تدقيق الفكر وتحقيق النظر، وإن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده بأجمعهم ما سلكوا مناهج الجدل في الدعوة والإرشاد والتوجيه.

قال رشيد رضا: «الجدل استعمل في لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة وهو محمود إن كان للوقوف على الحق، وإلا فمذموم وقد وردت عدة أحاديث

---

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم د. زاهر الألمعي واستخراج الجدل من القرآن الكريم لناصح الدين.

(٢) مفردات الراغب الإصفهاني ١٠١.

وآثار في ذم الجدل والنهي عنه منها «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[(١)]

ردود القرآن وبيانه تختلف عن جدل المتكلمين في الأسلوب والعرض وتباين سائر الأشكال المنطقية والطرق الجدلية المعقدة، فحجج الله وبراهينه واضحة جلية يفهمها المخاطب، ولا تحتاج إلى كد الذهن وأعمال الفكر، ولذلك لم يأمر الله بالجدل إلا وهو مقيد بالاحسن ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[(٢)] وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.[(٣)]

إنّ القرآن الكريم سلك في تقرير عقيدة التوحيد على طرق تصريف الآيات وتفصيلها، وضرب الأمثال، وعلى البيان بمختلف أنواعه. قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾[(٤)] وقوله ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾.[(٥)]

قال الآلوسي: «أي نحولها من نوع إلى آخر من أنواع الكلام، تقريراً للمعنى، وتقريباً إلى الفهم؛ لكي يعلموا جلية الأمر، فيرجعوا عما هم عليه».[(٦)]

ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾.[(٧)]

أهمية هذا الموضوع في القرآن الكريم

يبدو لي أن أهمية هذا العلم أكثر من أهمية بعض العلوم التي حواها كتاب الإتقان للسيوطي، وكتاب البرهان للزركشي، وغيرهما، ولو نبه جلال الدين

---

(١) انظر: المنار ٣/٢٢٦، ١٢/٩٦، شرح الطحاوية ٢/٢٧.
(٢) الآية ١٢٥ النحل.
(٣) الآية ٤٦ العنكبوت.
(٤) الآية ٦٥ الأنعام.
(٥) الآية ٩٨ الأنعام.
(٦) روح المعاني ٥/٢٦٤.
(٧) الآية ٣٣ الفرقان.

السيوطي لهذا وفطن له لجعله على رأس هذه العلوم، في الوقت الذي نراه أدخل أنواعاً في علوم القرآن صلتها بالقرآن ضعيفة. مثل النوع السادس وهو الأرضي والسمائي.(١)

وصلة هذا النوع بالقرآن كصلة الفرع بالأصل، بل إن علاقته بالقرآن كعلاقة الجزء بالكل، وقد أخذ حَيّزاً كبيراً من كتاب الله عزّ وجلّ.

وقد نص القرآن على هذا النوع من البيان في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.(٢)

فهذا النوع من ردود القرآن قد استقل ببيانه القرآن قبل أن يبينه النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكله إلى أحد، فمعرفة هذا الباب أكيدة.

قال الشيخ عبدالحميد بن باديس: «وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن، يتحتم على رجال الدعوة والإرشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة».(٣)

إن القرآن تولى الردّ على مفتريات ذوي الجحود والإنكار، وأجاب عن اعتراضات المشركين واقتراحاتهم، وردود القرآن أبلغ الردود وأصدقها وأحكمها، لا يتطرق إليها الخلل والشك، وقد تضمنت هذه الردود حججاً عقلية ينقاد لها عقل المخاطب، سواء أكان من المؤمنين بهذا القرآن أم كان من غيرهم، وهي - على وجازتها وسهولتها ووضوحها تفحم الخصم العنيد، وتلجم المكابر العنيد.

ثم إن الشبهات التي أثارها المشركون ويثيرها أعداء الإسلام من وقت نزول القرآن إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هي في جملتها متشابهة لا تخرج عن شبه السالفين ومنكراتهم. لأن المكذبين

(١) أنظر: الإتقان ١/ ٤٩.
(٢) الآية ١٣٨ آل عمران.
(٣) تفسير أبن باديس ٢٤٤.

والجاحدين في كل زمان ومكان يتشابهون في الطباع كما بين القرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.(١) وقل جل وعلا: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾(٢) وقال جل وعلا: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾(٣) وكذلك يفعل هؤلاء الجاحدون والمنكرون فعل آبائهم كما بين القرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(٤) وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.(٥)

والقرآن لم يترك هذه الشبهات والأقاويل والاقتراحات وإنّما فندها وأبطلها بالحجة والبرهان تحقيقاً لوعد الله الصادق ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.(٦)

قال جلال الدين السيوطي: «عن أبي حاتم قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.(٧)

فيجب علينا عند ورود أي شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى آي الذكر الحكيم، فسنجد الرّد الوافي والبيان الكاشف.

قال الشيخ عبدالحميد بن باديس: «ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام إلا وفي القرآن العظيم ردّها بهذا الوعد الصادق».(٨)

يقصد بالوعد الصادق قوله تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق

(١) الآية ١١٨ البقرة.
(٢) الآية ٤٣ فصلت.
(٣) الآية ٨١ المؤمنون.
(٤) الآية ٣٥ النحل.
(٥) الآية ٢٣ الزخرف.
(٦) الآية ٣٣ الفرقان.
(٧) الإتقان في علوم القرآن ١/٨٩.
(٨) تفسير عبدالحميد بن باديس ٢٤٤.

وأحسن تفسيراً﴾. إذا أخلصنا القصد وأحسنّا النظر في كتاب الله تدبراً وعملاً نجد الردود الوافية والحجج الواضحة لرد كل شبهة وإزالة كل باطل.

«إذا تتبعت آيات القرآن وجدتها قد أتت بالعدد الوافر من شبه الضالين واعتراضاتهم، ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف، في أوجز لفظ وأقربه وأبلغه».(١)

وقد سجل القرآن الكريم عدداً وفيراً من الأحداث والوقائع والاقتراحات والاعتراضات للمشركين وغيرهم من اليهود والنصارى، ورد عليها وأبطلها، وجاء بالبيان الشافي والمتأمّل في كتاب الله يجد أن هذه الأباطيل تنوعت واختلفت، فإن المشركين جاءوا بكلمات في حق الله تعالى وجاءوا بكلمات في حق ملائكته، وجاءوا بكلمات في حق النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته، وغير ذلك من الضلال المبين. ولسوف - بإذن الله وتوفيقه - أتتبع هذه المنكرات والشبهات كما سجلها القرآن، وأتتبع هذه الردود والبراهين كما وضحها القرآن وبينها.

بيان منهجي في هذا البحث:

ولبيان كل هذا سيتناول بحثي لتتبع ردود القرآن الكريم على المنكرين والجاحدين المباحث الآتية:

١ - ردود القرآن في قضية التوحيد.

٢ - ردود القرآن في قضية الملائكة.

٣ - ردود القرآن في النبوة والرسالة ويندرج تحتها عدة مباحث.

٤ - ردود القرآن في القضاء والقدر.

٥ - خاتمة البحث ونتائجه.

٦ - فهرس المصادر والمراجع.

---

(١) المصدر نفسه.

ردود القرآن على ما جاؤا به في حق الله تعالى:

أبدأ بأعظم حدث سجله القرآن للمشركين وغيرهم وحفل بالردّ عليه بجميع الوجوه، وهو إثبات توحيده عزّ وجلّ وتنزيه الله سبحانه وتعالى عما نسبه إليه المشركون والجاحدون، وأول الردود التي أخذت حيّزاً كبيراً في كتاب الله تثبت إفرادَ الله بالعبادة وتنزيهه عما لا يليق به جل وعلا.

قال الشيخ الحافظ الحكمي: «والقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»، وقال ابن القيم: «وغالب سور القرآن متضمنة لأنواع التوحيد، بل كل سورة في القرآن».(١)

وأعظم كلمة قالها المشركون في حق الله تعالى أنهم نسبوا إليه الولد تعالى الله عما يقولون الظالمون علوّا كبيراً، وقد اشترك في هذه الفرية، وهذا البهتان اليهود والنصارى والمشركون، فقد حكى القرآن عن هؤلاء بعض الأقوال الباطلة وأجاب عنها وفندها فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾(٢) وقال أيضاً: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾(٣) ومثلها في سورة الأنبياء.(٤)

والذين قالوا ذلك هم المشركون واليهود والنصارى، فقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا: «عزير ابن الله»، وحكى عن النصارى أنهم قالوا: «المسيح ابن الله»، وحكى عن المشركين أنهم قالوا: «الملائكة بنات الله».

فذكر الله مفتريات اليهود والنصارى، وجمعهم في هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.(٥)

---

(١) معارج القبول ١/٢٥، شرح الطحاوي ٤٢.
(٢) الآية ١١٦ البقرة.
(٣) الآية ١٨٨ مريم.
(٤) الآية ٢٦ الانبياء.
(٥) الآية ٣٠ التوبة.

ونكر مفتريات المشركين في هذه الآية: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[2]

وقد جاءت أجوبة القرآن تترى عن هذه الفرية، وتنوعت أساليب دحضها وردها.

وقد بين القرآن أولاً عظم هذه الكلمة وشدتها وأثرها على الكون فقال: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.[3]

فأهم وظائف هذا القرآن: إنذار هؤلاء الذين تجرأوا على الله بهذا الباطل، فنفت الآية عنهم وعن أسلافهم الذين يقلدونهم العلم، عظمت هذه الكلمة التي تخرج من أفواههم، وقد صوّر القرآن عظم ما نطقوا به من قبح، وأثر ذلك على السماوات والأرض والجبال فقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.[4]

لقد جاؤا بقولهم هذا بأمر منكر عظيم، تكاد السماوات تتفطر من هوله وتتصدع الأرض من عظمه، وتسقط الجبال استعظاماً لهذه الكلمة التي تهدم التوحيد.

---

(١) الآية ١٠٠ الانعام.
(٢) الآية ٥٧ النحل.
(٣) الآية ٥ الكهف.
(٤) الآية ٨٩ مريم.

وكل من في السماوات والأرض ما هو إلا عبد لله مقرّ له بالعبودية: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.(١)

قال ابن عباس: «إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله».(٢)

أقول: ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٣)

قال الحافظ ابن كثير: «ليس لها – الكلمة – مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم».(٤)

لما بين القرآن في ردوده عظم هذا المنكر وأثره على الكون جاءت الردود تترى بمختلف الأساليب؛ لتسقط هذا الزعم، وتبني معالم التوحيد في نفوس الناس، وقد اتخذت أنماطاً مختلفة، فتارة بالنفي القاطع، وأخرى بالتنزيه، وطوراً بنفي الشريك ونفي الصاحبة عنه سبحانه وتعالى.

والآيات التي تضمنت الرد على هؤلاء المنكرين والجاحدين كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾.(٥)

في هذه الآية إضراب عن مقالتهم، وشروع في الاستدلال على بطلانها فالسماوات والأرض ومن فيهن مملوك لله، يتصرف فيها كيف يشاء، وكل ما فيهن مطيع لله مسخر منقاد لله رب العالمين، وليس الأمر كما زعموا، تنزه وتقدس.

---

(١) الآية ٤٠ الإسراء.
(٢) تفسير ابن كثير ١٤٦/٣، البحر المحيط ٢٠٦/٦.
(٣) الآية ٤٤ الإسراء.
(٤) تفسير ابن كثير ٧٦/٣.
(٥) الآية ١١٧ البقرة.

قال ابن كثير: «اشتملت هذه الآية على الرد على النصارى وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولداً، سبحانه وتعالى، وليس الأمر كما زعموا، وإنما له ملك السماوات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك له».(١) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.(٢)

ثم يتابع القرآن ردوده عن مقالاتهم السخيفة فيقول: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.(٣) فهو منشئ السماوات والأرض ومبدعها ومخترعها على غير مثال سابق ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.(٤)

تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، لأنه هو الغني بذاته عن الولد وعن كل شيء، وهو المالك لجميع الكائنات ما عندهم دليل ولا شبهة دليل على ما زعموه.(٥)

فقد حفلت الآيات البينات بالردّ القاطع على هذا المنكر العظيم وتنزيه الله سبحانه وتعالى عما يقولون.

واقتصر على بعض هذه الردود لكثرتها قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ

---

(١) تفسير ابن كثير ١ /١٦٥.
(٢) الآية ٤١ النور.
(٣) الآية ١٠١ الأنعام.
(٤) الآية ٦٨ يونس.
(٥) انظر: تفسير أبي سعود ٤/١٦٣.

مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُۥ﴾[1] وقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[2] وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[3] وقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.[4]

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.[5] هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يلقنه الرّد على هذا الإفتراء، قل لهؤلاء المشركين: لو فرض أن لله ولداً لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد، ولكنه جل وعلا منزه عن ذلك. قال القرطبي: «وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده، وهذه مبالغة في الاستبعاد، وترقيق في الكلام».[6]

أقول: وهذا التفسير من القرطبي يشهد لصحته قوله تعالى: ﴿قل لو كان معه ءالهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ على أحد الوجوه كما سيأتي.

ولو أراد الله – سبحانه وتعالى أن يتخذ ولداً على سبيل الفرض والتقدير لاختار من خلقه ما يريده هو، لا ما يريده الضالون، لكنه سبحانه وتعالى لم يختر أحداً ليكون ولداً له؛ لأنه الغني. وإلى هذا المعنى أشار الحق فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.[7]

---

(١) الآية ٣٥ مريم.
(٢) الآية ٩٢ مريم.
(٣) الآية ١١١ الإسراء.
(٤) الآية ٢٦ الأنبياء.
(٥) الآية ٨٢ الزخرف.
(٦) الجامع القرطبي ١٦/١١٩.
(٧) الآية ٤ الزمر.

ومن ردود القرآن القاطعة والبراهين الساطعة على إثبات توحيد الله عزّ وجل وتنزيهه عما يقول الظالمون قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.[١]

قال الشيخ الشنقيطي: «لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعم الكفار لابتغوا – أي الآلهة المزعومة – أي لطلبوا إلى ذي العرش أي إلى الله سبيلاً أي إلى مغالبته وإزالة ملكه».[٢]

ثم ساق سبحانه وتعالى دليلاً عقلياً مستمداً من واقع هذا الكون فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.[٣] أي لو كان في السماوات آلهة أخرى سوى الله – سبحانه – تدبر أمرهما لفسدتا، ولخرجتا عن نظامهما البديع الذي لا خلل فيه ولا اضطراب، وإن تعدد الآلهة – كما يزعمون – يلزمه التنازع والتغالب، فيختل النظام، ويضطرب الأمر ويعم الفساد.

ولو كان آمر السماوات والأرض ومدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا، وقد بين القرآن فساد القول بتعدد الآلهة فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٤] لم يتخذ الله ولداً كما يزعمون، لأنه سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك، ولم يكن معه إله يشاركه في ألوهيته وربوبيته عزّ وجل.

---

(١) الآية ٤٤ الإسراء.
(٢) أضواء البيان ٤٣٣/٣، روح المعاني ١١٨/٩.
(٣) الآية ٢٢ الأنبياء.
(٤) الآية ٩٢ المؤمنون.

ولو كان الأمر كما يزعمون لاستقلّ كل إله بما خلقه وتفرّد به عن غيره، ولحدث بينهم من التحارب والتغالب ما لا يخفى، ويحدث لهذا الكون الخلل والاضطراب. ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.[2]

قال أبو حيان: «ولو كان معه شريك في الخلق لانفرد كل إله بخلقه الذي خلق واستبد به، وتميز كل واحد عن ملك الآخر وغلب بعضهم بعضاً».[3]

وقال محمد جمال الدين القاسمي: «المتخالفان بالذات يجب أن يتخالفا في الأفعال، فيذهب كل بما خلقه ويستبد به، ويظهر بينهم التحارب والتغالب، فيفسد نظام الكون».[4]

ثم ناقش القرآن أهل الكتاب، ووجه النداء إليهم، ليحذرهم من المقالات في شأن عيسى، وطلب منهم الكف عن الشرك، وأرشدهم إلى الاعتقاد الصحيح في نبي الله عيسى، وأنه عبد الله ورسوله، ثم أثبت القرآن وحدانية الله بأقوى طريق فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.[5]

---

(١) الآية ١٧ البقرة.
(٢) الآية ٤ الملك.
(٣) البحر المحيط ٦/٣٨٦.
(٤) محاسن التأويل ٧/٣٠٠.
(٥) الآية ١٧٢ النساء.

ثم بعد هذا النهي عن الغلو في عيسى عليه السلام وبيان القول الحق فيه ناقشهم القرآن وأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يردّ على هؤلاء الضلال فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾.(١)

والمعنى من ذا الذي يملك من أمر الله وإرادته شيئاً يدفع به الهلاك عن المسيح وعن أمه وعن سائر أهل الأرض إن أراد أن يهلكهم، احتج سبحانه وتعالى على فساد ما ذهب إليه النصارى بإرادته الهلاك، فلا يستطيع أحد أن يرد ذلك.

وقد أفاض القرآن في رد مزاعم النصارى فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾.(٢)

وقال أيضاً في تفنيد مزاعمهم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.(٣)

---

(١) لآية ١٧ المائدة.
(٢) الآية ٧٢ – ٧٥ المائدة.
(٣) الآية ٥٩ آل عمران.

إن آدم ما كان له أب ولا أم، ولم يلزم أن يكون ابناً لله تعالى، فكذلك القول في عيسى، إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من تراب من غير أب ولا أم، وخلق حواء من آدم، فالأولى أن يجوز أن يخلق عيسى من مريم، وهذا أقرب إلى العقل.(١) فالآية الكريمة ترد رداً محكماً يهدم زعم كل من قال بألوهية المسيح أو اعتبره ابن الله، لأنه إذا كان الله - تعالى - قادراً على أن يخلق إنساناً بدون أب ولا أم، فأولى ثم أولى أن يكون قادراً على خلق إنسان من غير أب فقط ومن أم هي مريم التي تولاها سبحانه برعايته وصيانته لها من كل سوء. وجود آدم من غير أب ولا أم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه.(٢)

وقد تعلق النصارى بقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾،(٣) وقد بين القرآن أن من كان في قلبه انحراف وميل عن الصراط السوي يتبع المتشابه يبتغي به الفتنة ويريد به التأويل وكان الواجب أن يردوا الآيات التي خفيت دلالتها عنهم، والتبس معناها عليهم إلى الآيات المحكمات التي وصفها الله بقوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٤) أي أصله الذي يجب أن يرد غيره إليه وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾(٦) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٧). وغيرها من الآيات المحكمات.

ردود القرآن على مزاعم كفار قريش في حق الملائكة

إن القرآن الكريم قد سجل عدداً وفيراً من مفتريات كفار قريش في حق

---

(١) انظر: تفسير الرازي ٤/ ٨٤.
(٢) كلام الزمخشري في الكشاف ١/ ٣٦٧.
(٣) الآية ١٧١ النساء.
(٤) الآية ٧ آل عمران.
(٥) الآية ٥٩ الزخرف.
(٦) الآية ٧٢ النساء.
(٧) الآية ٥٩ آل عمران.

الله وحق ملائكته، وأجاب عنها بأسلوب واقعي، حيث ساق لهم الحقائق بأسلوب يغلب عليه طابع الموازنة والمقارنة والاستشهاد بالواقع، وضرب لهم مثلاً من أنفسهم فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[2] وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾[3] وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[4] وقال: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[5] ومن مفترياتهم ما حكاه القرآن في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[6].

هذه الآيات الكريمة وغيرها تحكي ما كان شائعاً في بعض قبائل العرب من أنهم كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله – سبحانه – وكانت قبيلة خزاعة وقبيلة كنانة تقولان بذلك في الجاهلية، ويزعمون أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى.[7]

وكانت طوائف من العرب تزعم ذلك كجهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح[8]، فالقرآن الكريم صور ما كان عليه الحال في الجاهلية من فساد في الاعتقاد، ثم كرّ على كل هذه التقولات، وناقش أقوالهم وأبطلها.

وخلال مناقشات القرآن وردوده على هذه المزاعم بين أن ما يقولونه في حق الله جل وعلا وملائكته منكر عظيم قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا

---

(١) الآية ٢٧ النجم.
(٢) الآية ٥٧ النحل.
(٣) الآية ١٥ الزخرف.
(٤) الآية ١٩ الزخرف.
(٥) الآية ١٠٠ الأنعام.
(٦) الآية ١٥٨ الصافات.
(٧) الجامع القرطبي ٥/١٠٤، ٦/١٩٠، ٨/١٢٠.
(٨) المحرر الوجيز لابن عطية ٢/٣٢٩، تفسير أبي السعود ٩/٢٠٧.

عَظِيمًا﴾[1] إنكم بنسبتكم البنات إلى الله – سبحانه وتعالى – لتقولون منكراً من القول وزوراً. ثم توالت الردود والإجابات من القرآن عن هذا الاعتقاد الفاسد، تارة بنفي العلم عنهم، وتارة أخرى بتنزيه الله تعالى وثالثة بمطالبتهم بالبرهان والدليل على ما يقولون.

قال جل وعلا: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾،[2] وقال منكراً عليهم: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾،[3] والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتهكم، والمعنى: أفخصكم ربكم بالذكور واختار لنفسه على حد زعمكم البنات – سبحانه – ومقصود الآية نفي ما زعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ وجه، ولم يخصكم ربكم بالبنين، ولم يتخذ من الملائكة إناثاً ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[4] وتوالى الإنكار عليهم في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[5] والحال أن هذه القسمة فيها جور لأنكم تأنفون من البنات التي نسبتموهن لله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.[6]

فذكرت الآية حالهم عندما يبشرون بولادة أنثى، وبينت عادتهم الجاهلية، إذا أخبر أحد هؤلاء الذين يجعلون لله البنات بولادة أنثى دون الذكر صار وجهه

---

(١) الآية ٤٠ الإسراء.
(٢) الآية ٢٨ النجم.
(٣) الآية ٤٠ الإسراء.
(٤) الآية ٤ الزمر.
(٥) الآية ٢١ النجم.
(٦) الآية ٥٩ النحل.

مسوداً كئيباً حزيناً يختفي من الناس حجلاً وحياء، ثم هو بعد ذلك إما أن يمسكها على هوان ومذلة، وإما أن يدفنها حية ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ بئس الحكم حكمهم، وبئس الفعل فعلهم، حيث نسبوا البنات لله تعالى.(١)

ثم بين القرآن كذبهم وتناقضهم مع أنفسهم، حيث اعترفوا بأنه تعالى خالق السماوات والأرض ثم وصفوه بصفات المخلوقين.(٢)

وهل كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم حتى حكموا عليهم بهذا الحكم الباطل، لم يكونوا كذلك، وليس عندهم علم بذلك ولا برهان، وليس عندهم كتاب يشهد لصحة دعواهم، فهم به مستمسكون، ولم يكن شيء من هذا أو ذلك، وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾(٣) **قال الألوسي**: «أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشهدوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم؟ فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة»(٤) **أقول**: نفى عنهم طرق العلم الثلاثة، ليس لهم علم لا من جهة النقل، ولا من جهة العقل ولا من جهة المشاهدة، فبان كذبهم وسقط مدعاهم ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾.(٥)

---

(١) انظر المحرر الوجيز بن عطية ٣/٤٠١.
(٢) روح المعاني للألوسي ١٤/١٠٦.
(٣) الآية ٢١ الزخرف.
(٤) روح المعاني ١٤/١١٠، زاد المسير ٣/١١١، ٧/٢١٣.
(٥) الآية ٥١ الكهف.

أنكر الله عليهم وردّ دعواهم أنهم نسبوا له - سبحانه - ما لا يليق به من الولد، ومع ذلك نسبوا أنقص الولدين وأضعفهما، ولذلك ينشأ في الحلية، أي الزينة، ليجبر نقصه الخلقي الطبيعي بالتجميل بالحلي، وهو الأنثى، بخلاف الرجل، فإن كمال ذكورته وقوته يغنيه عن الحلي، ولذلك ردّ هذه القسمة الظالمة الجائرة، وغير العادلة، لأن الأنثى أنقص من الذكر قوة وتحمّلا، فجعلوا هذا النصيب الناقص لله عزّ وجلّ، وجعلوا الكامل لأنفسهم، كما قالت العرب في أمثالها: «**احشفا وسوء كيله**».

ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم - أن يستفتيهم في شأن الملائكة توبيخاً وتأنيباً، وأن يرد على كذبهم ردّاً يخرس ألسنتهم فقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.(١)

فالقرآن حاصرهم وضيق عليهم الخناق في مناقشاته وردوده، فنفى عنهم المشاهدة، وأثبت لهم الكذب، ونفى عنهم البرهان والحجة على زعمهم، وليس لهم من طرق العلم إلا الإفك والبهتان، وأثبت القرآن تنزيه الله عما يقولون وعما يفترون سبحانه وتعالى.(١) ثم بين القرآن وظائف الملائكة وأنهم خلق من مخلوقاته يعبدونه فقال جل وعلا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾.(٢)

---

(١) الآية ١٤٩-١٥٩ الصافات. وانظر: تفسير ابن كثير، ٤/ ٢٥.
(٢) الآية ٢٨ الأنبياء.

هكذا يفند القرآن مزاعم القوم ويرد اعتقاداتهم الفاسدة، ويثبت تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يقولون.

ردود القرآن على أهل الجحود والإنكار في القضاء والقدر

ولما أبطل الله دعواهم انتقلوا إلى زعم آخر، وهو أن شركهم بالله كان بمشيئة الله تعالى وهو راض عن ذلك، وقد حكى القرآن هذا ثم أبطله فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ﴾.(١)

ومثل هذه الآية ما جاء في سورة النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.(٢)

ومثل الآيتين السابقتين ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

---

(١) الآية ١٥٠ الأنعام.
(٢) الآية ٣٥ النحل.

مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾.(١)

هذه شبهة قديمة جديدة، لأن كثيراً من المعاندين والجاحدين للرسل موّهوا بها، وحديثه لأن بعض الناس في زماننا هذا يتمسكون بما تمسك به القدماء، فتراهم يرتكبون القبائح والمنكرات، ويعزون ذلك إلى مشيئة الله وقضائه وقدره.

قال رشيد رضا: «سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله تعالى أن لا نشرك به، وأن لا يشرك آباؤنا من قبلنا لما أشركنا ولا أشركوا، ولو شاء الله أن لا نحرم شيئاً مما حرّمنا من الحرث والأنعام لما حرمنا».(٢)

إنهم يحيلون الشرك وعباده غير الله وتحريم ما أحله الله على إرادة الله ومشيئته، فلو شاء الله في زعمهم ألا يفعلوا شيئاً من هذا لمنعهم بقدرته التي لا يعجزها شيء.

فاعتذار الكافرين عن كفرهم بما يشبه قول الجبرية مرفوض، لم يقبله الله تعالى، وقد ناقشهم القرآن الكريم وردّ قولهم الذي ظاهره حق.

قال القرطبي: «وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل»(٣) قال تعالى في الردّ عليهم في سورة الأنعام: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾(٤) وقال في سورة النحل: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(٥) أي مثل ذلك التكذيب الذي صدر من مشركي العرب وأهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم، فيما جاء به من إثبات للتوحيد وإبطال للشرك كذب الذين من قبلهم رسلهم وأعرضوا عن الرسالة التي جاؤا بها فعاقبهم الله، لأن الرسل حذرت وأنذرت من الشرك، مما يدل على أن كفرهم وشركهم وتحليلهم وتحريمهم كان باختيارهم وإرادتهم، فمشيئة الله الشرعية لا حجة لهم فيها، ولو كان فعلهم

---

(١) الآية ٢٤ الزخرف.
(٢) تفسير المنار ٨/١٧٦.
(٣) الجامع للقرطبي ١٦/٦٥.
(٤) الآية ١٤٨ الأنعام.
(٥) الآية ٣٣ النحل.

مرضياً لله كما يدعون لما أهلكهم الله ﴿تشابهت قلوبهم﴾.(١)

إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية غير مراده، لأنّ الله نهى الناس عن الكفر على السنة رسله، وأما المشيئة الكونية، وهي تمكين بعض الناس من الكفر، فلا حجة لهم فيها، بدليل قوله تعالى ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾،(٢) ولأن مشيئة الله تعالى من علم الغيب، كيف يحتجون بما لا يعلمونه من الغيب، فلذلك قال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ هل لديكم علم وبرهان واضح يصح الاحتجاج به فيما قلتم فتظهروه وتبينوه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾، أي لا حجة لهم على ما يقولون إلا الظن والخيال والاعتقاد الفاسد، وهم كاذبون في مزاعمهم، لأن مشيئة الله لا يعلمها أحد سواه، ثم أمر الله رسوله أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فحجتكم ساقطة عن درجة الاعتبار، ولله الحجة البينة الواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين، ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر، ليتم التكليف.(٣)

ثم أمره الله أن يقول لهم: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي أحضروا من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله حرّم هذه الأشياء التي تدعونها.(٤)

ثم واصل القرآن الاحتجاج في إبطال هذه الدعوى فقال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي أعطيناهم من قبل القرآن كتاباً فيه ما يشهد بصحة أقوالهم، فهم بهذا الكتاب مستمسكون، كلا إننا لم نعطهم

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٤٧.
(٢) الآية ٧ الزمر.
(٣) صفوة التفاسير ١/٣٩٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/١٩٤.

شيئاً، ثم بين الحق تبارك وتعالى أن ليس لهم في الحقيقة مستند لا من العقل ولا من النقل، وإنما مستندهم الوحيد التقليد لآبائهم في السفه والجهل فقال: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: «يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾. ومضمون دعواهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه».(١)

وقال: «فمشيئته تعالى الشرعية منتفية؛ لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة».(٢)

ردّ القرآن على مزاعمهم في النبوة والرسالة ونبوة محمد - ﷺ - ورسالته:

أولاً: ما قالوه في حق النبي - ﷺ -:

إذا تتبعنا في القرآن ما قاله المشركون والمكذبون نجد ألواناً من الشبهات والاقتراحات التي أثارها المنكرون والجاحدون حول النبي - ﷺ - وحول رسالته القرآن، وقد بلغ بهم الجحود والإنكار أنهم مثلوا للنبي - ﷺ - الأمثال، فوصفوه تارة بأنه مسحور، وتارة بأنه ساحر، وتارة أخرى بأنه معلم مجنون، فتحيروا فيما يصفونه به للناس، لئلا يعتقدونه نبياً، فجعلوا يتطلبون أشبه الأحوال بحاله في خيالهم، فيلحقونه به، وسجل القرآن الكريم عليهم الحيرة والتردد والاضطراب، حيث جعلوا يتنقلون في وصفه - ﷺ - من صفة إلى صفة، لعلمهم أن ما يصفونه به باطل لا يطابق حال النبي - ﷺ - كما ذكر

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٨٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٥٩٠.

الله عنهم: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[1] وقال جل وعلا: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.[2]

فهم في شأن النبي - ﷺ - ورسالته في حيرة وتردد واضطراب، وقد سجل القرآن عليهم ذلك الاضطراب فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾،[3] وقال مخاطباً لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾،[4] فهم في أمر مريج مختلط، لا يستقرون على حال، يقال: مرج الأمر بزنة طرب إذا اختلط وتزعزع وفقد الثبات والاستقرار، والقول المختلف هو المتناقض الذي يخالف بعضه بعضاً، فجميع أقوالهم في النبي - ﷺ - ورسالته مضطربة متناقضة، وليست مستقرة، فقولهم: «ساحر» يناقض قولهم: «مسحور»، وقولهم: «معلم مجنون» و«شاعر مجنون» جمع بين النقيضين، فالتعليم والشعر يتنافى مع الجنون، حقاً ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾، وكلامهم في النبي ورسالته يبطل بعضه بعضاً حقاً: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ وكان يكفي في إسقاط تقولاتهم أنها متناقضة مضطربة.

يمكن تصنيف شبهاتهم واعتراضاتهم على النبوة عموماً وعلى نبوة محمد - ﷺ - ورسالته والردود عليها على النحو التالي:

أولاً: شبهاتهم على بشرية النبي - ﷺ - والردّ عليها:

وأول دعواهم الباطلة التي فندها القرآن تفنيداً عجيباً وأجاب عنها: قولهم: إن الرسول لا يكون من البشر، وقد حكاها القرآن في كثير من الآيات، وهذه الدعوى ليست جديدة في تاريخ الرسل، بل هي قديمة قدم الرّسالات، وكان كل قوم يستقبلون رسولهم بهذه الكلمة ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وقد سجل القرآن الكريم هذا الاتفاق الحاصل من جميعهم فقال: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا

(١) الآية ٤٨ الإسراء، ٩ الفرقان.
(٢) الآية ٨ الأحقاف.
(٣) الآية ٥ سورة ق.
(٤) الآية ٨ الذاريات.

بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾،(١) فنوح عليه السلام قال له قومه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾(٢) وقالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾(٣) وهود عليه السلام قال له قومه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.(٤)

وقال الملأ من قوم فرعون لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾،(٥) وقال قوم صالح عليه السلام لنبيهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾،(٦) وقالوا أيضاً: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾(٧) وقال قوم شعيب لرسولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾،(٨) وقال أصحاب القرية: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾،(٩) فجميع الأقوام قالوا لرسلهم: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾.(١٠)

وردد المشركون للنبي - ﷺ - ما قاله أمثالهم لإخوانه المرسلين. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.(١١) فالمنكرون والجاحدون أنكروا أن يكون الرسول من البشر في

---

(١) الآية ١٠ إبراهيم.
(٢) الآية ٢٤ المؤمنون.
(٣) الآية ٢٧ هود.
(٤) الآية ٣٤ المؤمنون.
(٥) الآية ٤٧ المؤمنون.
(٦) الآية ١٥٤ الشعراء.
(٧) الآية ٢٤ القمر.
(٨) الآية ١٨٦ الشعراء.
(٩) الآية ١٥ يس.
(١٠) الآية ٩ التغابن.
(١١) الآية ٩٤ الإسراء.

الهيئة والصورة، يأكل ويشرب، ويرون أن الرسول لابدّ وأن يكون من الملائكة، وقد سجل القرآن اقتراحاتهم واعتراضاتهم، وفندها وأبطلها ببيان الحكمة من إرسال واختيار الرسول البشري، وأزال جميع شبهاتهم. وبعد استبعادهم أن يكون الرسول من البشر، وكان الواجب أن يكون ملكاً نزلوا عن اقتراحهم هذا إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾.(١)

ثانياً: اقتراحهم أن يكون النبي – ﷺ – ملكاً والردّ عليهم:

ومن الآيات التي ذكرت اقتراحهم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٤) وقوله: ﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٥) فهذه الآيات ونحوها بيّنت شبهتهم في عدم الإيمان أن الرسول الذي يرسله الله إلى الخلق لابد وأن يكون من جنس الملائكة، لذلك صاروا في حيرة واضطراب من أمرهم، كيف يصفون شأنه – ﷺ –، ورموه بجملة من الأوصاف المزعومة وضربوا له الأمثال، فقالوا كما حكاه القرآن عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾،(٦) ثم انتقلوا من هذا الوصف إلى قولهم: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾،(٧) ثم قالوا: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ

---

(١) الآية ٧ الفرقان.
(٢) الآية ٨ الأنعام.
(٣) الآية ٢١ الفرقان.
(٤) الآية ٢٤ المؤمنون.
(٥) الآية ١٤ فصلت.
(٦) الآية ٤ سورة ص.
(٧) الآية ٤٧ الإسراء.

﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.(١) وكل وصف يرونه لا يطابق شانه - ﷺ - إلا أضربوا عنه إلى وصف آخر: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾.(٢) لذلك تراهم في بعض الأحيان يمزجون وصفين في آن واحد كما نكره القرآن عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾،(٣) ثم تحيروا واضطربوا، وقالوا:﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾(٤) فأقوالهم فيه متناقضة ﴿فهم في أمر مريج﴾، ولا يصح الجمع بين كونه معلّماً ومجنوناً في آن واحد، لأن المجنون لا يكون معلّماً ولا يتأثر بالتعليم(٥) وكان يكفي في سقوط مقترحاتهم عن درجة الاعتبار هذا التناقض العجيب، والتنافر المعيب، إلا أن القرآن أجاب عن كل هذه الشبهات وأبطلها، وأزالها ببيانه الساطع وردوده النافذة من وجوه:

الوجه الأول: فقال في رده على اقتراح نزول الملائكة: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾(٦) ما ينزل الله الملائكة إلا تنزيلاً متلبساً بالحق، بالوجه الذي تقتضيه حكمة الله، كأن ينزلهم لإهلاك الظالمين أو لتبليغ الوحي إلى رسل الله والتي ليس منها ما اقترحه المشركون. قال ابن عطية: «والظاهر أن معناها كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي رآها الله لعباده لا على اقتراح كافر ولا باختيار معترض»(٧)وقال في بيان فساد اقتراحهم: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾،(٨) ولو أنزل الله ملكاً كما اقترح هؤلاء الجاحدون والمنكرون، وهم على ما هم عليه من الكفر والإنكار لقضى عليهم بالإهلاك، ولا يمهلون ولا يؤخرون، بل يأخذهم العذاب عاجلاً.

---

(١) الآية ٣ الأنبياء.
(٢) الآية ٥ الأنبياء.
(٣) الآية ٣٦ والصافات.
(٤) الآية ١٤ الدّخان.
(٥) انظر التحرير والتنوير ٢٥/٢٩٢.
(٦) الآية ٨ الحجر.
(٧) الآية ٨ الحجر.
(٨) الآية ٨ الأنعام، وانظر المحرر الوجيز ٣/٣٥١، البحر المحيط ٥/٤٣٥.

قال ابن عباس: «لو رأوا الملك على صورته لماتوا، إذ لا يطيقون رؤيته»، وقال الحسن وقتادة: «لأهلكوا بعذاب الاستئصال، لأن الله أجرى سنته بأن من طلب آية، فأظهرت فلم يؤمن أهلكه الله في الحال، ولا يمهلون ولا يؤخرون».(١)

أقول: يكون حالهم في هذا الاقتراح كالساعي إلى حتفه، وإن عدم إجابتهم فيها حياة لهم وإبقاء على أنفسهم.

وقال أبو السعود: «وقيل: إنهم إذا رأوه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف»(٢) ويكون حينئذ من قبيل إيمان المضطر.

الوجه الثاني: في رد اقتراحهم ذكره بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝﴾،(٣) لو جعل الله الرسول من الملائكة - كما اقترحوا - لكانت الحكمة تقضي أن يجعله في صورة البشر، ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه الذي يبلغه عن الله، ويفهموا عنه ويأنسوا به، ويكون في موضع الاقتداء والاهتداء.

لو جعل الله الرسول من الملائكة لكن من الحكمة أن يجعله في صورة بشر، ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه الذي يبلغه، وفي هذه الحالة يقولون لهذا الملك المرسل إليهم في صورة بشر: لست ملكاً، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه، ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، بسبب استبعادهم أن يكون الرسول بشراً.(٤)

لو أنزل الله ملكاً لكان على هيئة البشر ليمكنهم الانتفاع بالأخذ عنه، ليصح منهم الاقتداء والاهتداء لأنه يجرى عليه ما يجرى عليهم، ويكون سلوكه نموذجاً لما يدعو إليه، وإن الملائكة جنس آخر «لا يعصون الله ما أمرهم

---

(١) الجامع القرطبي ٦/٣٦٢، المحرر الوجيز ٢/٢٧١، تفسير ابن كثير ٢/١٢٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٣/١١٣، البحر ٤/٨٣.
(٣) الآية ٩ الأنعام.
(٤) أنظر: تفسير ابن كثير ٢/١٢٩، الجامع للقرطبي ٦/٣٩٤.

ويفعلون ما يؤمرون»، ولذلك كان جبريل يأتي للنبي - ﷺ - في صورة رجل، وتمثل لمريم بشراً سوياً، وتمثلت الملائكة لإبراهيم ولوط بصورة البشر.

قال سيد قطب: «ولو كان الرسل من غير البشر كما اقترحوا لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس، فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم، ولا البشر يقتدون بهم ويهتدون، والرسول الملكي لا يثير في نفوس الناس الرغبة في تقليده، لأنه من جنس غير جنسهم وطبيعة غير طبيعتهم، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه، والرسول البشرى كان يبين شرع الله بقوله وفعله وإقراره، كل ذلك كان داعياً وباعثاً لهم على العمل».(١)

الوجه الثالث: لدحض شبهاتهم ورد اقتراحهم أمر الله نبيه - ﷺ - أن يقول لهم: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.(٢) لو ثبت وجود الملائكة في الأرض يمشون على أقدامهم كما يمشي الإنس، ويعيشون فوقها مستقرين مقيمين لأرسل الله عليهم ملائكة من جنسهم وبلسانهم، ليحصل التخاطب والتفاهم، لأن كل جنس يأنس بجنسه، والرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم.

لو كان أهل الأرض ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة، لأن الجنس إلى الجنس أميل، وبما أن أهل الأرض من البشر كانت الحكمة تقضي أن يكون رسولهم من البشر.(٣)

قال القاسمي: «نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليتفقهوا عنه، ويفهموا منه، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته، حتى لو كانت الأرض مستقراً لملائكته لكانت رسلهم منهم، جرياً على قضية الحكمة».(٤)

---

(١) انظر التفاصيل في ظلال القرآن ٤/٢٣٦٩.
(٢) الآية ٩٥ الإسراء.
(٣) تفسير الرازي ١١/٦١.
(٤) محاسن التأويل ٦/٥١٤، تفسير ابن كثير ٣/٦٨، الكشاف ٢/٦٤٩.

لو كان في الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الإنس ساكنين في الأرض مستقرين لنزل الله عليهم ملكاً رسولاً من جنسهم، ليعلمهم الخير والرشد.

الوجه الرابع: بين الله لهم أن اليوم الذي يتحقق لهم فيه رؤية الملائكة كما اقترحوا لن يكون يوم خير عليهم، بل سيكون يوم بلاء، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[(١)] وهو وقت الموت أو وقت القيامة.[(٢)]

ومما يعاضد هذه الردود قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٣)] ما أرسل الله إلى الأمم السابقة إلا رسلاً من البشر، ليعيشوا حياة البشر، وليتمكنوا من التعامل والتخاطب والتفاهم مع من هم من جنسهم، ولو كان الرسول من غير البشر - كما اقترحوا - لما كان هناك أمر القيام بالتكاليف الشرعية، لعدم وجود التناسب بين الرسول الملكي والمرسل إليهم من البشر، لأنه يقدر - بأمر الله - على ما لا يقدرون.

ثالثاً: اعتراضهم بان منصب النبوة والرسالة يتعارض مع الأكل والشرب والزواج والرد على ذلك وبيان الحكمة:

ومن مطاعنهم وشبهاتهم ما حكاه القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ﴾[(٤)] فقالوا متعجبين ومنكرين: إنه ياكل الطعام ويمشي في الأسواق، فعيّروه بأكل الطعام، لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكاً، وعيّروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك

---

(١) الآية ٢٢ الفرقان.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٢٥.
(٣) الآية ٧ الأنبياء.
(٤) الآية ٧ الفرقان.

الجبابرة يترفعون عن الأسواق، وكان عليه الصلاة والسلام يخالطهم في أسواقهم ويغشاهم في مجالسهم، يأمرهم وينهاهم، فما له يخالف سيرة الملوك.(١)

الجواب العتيد في رد الخصم العنيد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.(٢)

وقال في ردّ باطلهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾،(٣) وقال في رده ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾(٤) فهذه الآيات وغيرها تضمنت الردّ القاطع على اعتراض المشركين على بشرية الرسول، وأنه جل وعلا ما أرسل أحداً من الرسل إلا وحالهم وشأنهم أنهم يأكلون الطعام الذي يأكله غيرهم، ويمشون في الأسواق كما يمشي غيرهم من الناس، طلباً للرزق.

وما جعل الرسل السابقين أجساد لا تأكل ولا تشرب كالملائكة، وإنما جعلهم بشراً يأكلون ويشربون، ويتزوجون ويتناسلون، ويعتريهم ما يعتري البشر، ولكن الله اختارهم وفضلهم لأداء رسالته، وإن كنتم لا تعلمون ذلك فاسألوا من لهم علم بأحوال الرسل السابقين.

قال الألوسي: «فنزلت هذه الآية ردّاً عليهم حيث تضمنت أن التزوج لا ينافي النبوة، وأن الجمع بينهما قد وقع في رسل كثيرة قبله - ﷺ -».(٥)

وقال القاسمي: «إعلام بأن ذلك سنة كثير من الرسل، فما جاز في حقهم يجوز في حقه - ﷺ -».(٦)

---

(١) أنظر الجامع للقرطبي ١٣/٧.
(٢) الآية ٢٠ الفرقان.
(٣) الآية ٨ الأنبياء.
(٤) الآية ٣٨ الرعد.
(٥) روح المعاني ٢٤٢/٨.
(٦) محاسن التأويل ٤٢٣/٧.

كما نجد القرآن يردّ اعتقاد النصارى في عيسى فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.(١)

فإن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها، وأنه مساو لإخوانه المرسلين وأمه صديقة، وأنهما يحتاجان للطعام والشراب كما يحتاج سائر الخلق، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون إلهاً.(٢)

وجميع الرسل ردّوا على مقالة المنكرين والجاحدين، وأجابوا بالموافقة على كونهم من البشر دون غيرها، وقد حكى القرآن ردودهم فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾(٣) أقرت الرسل بالآدمية، والمماثلة في البشرية لا تمنع من أن يتفضل الله على من يشاء التفضل عليه من عباده بأن يمنحه النبوة أو غيرها من نعم الله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾(٤) فجواب الأنبياء أنهم سلموا أن الأمر كذلك، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾.(٥) فاختار من الملائكة رسلاً، واختار من البشر رسلاً، وفق الحكمة التي قدمنا بيانها، وهي حصول المفاهمة والمجانسة بين الرسول والمرسل إليهم ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾.(٦)

---

(١) الآية ٧٥ المائدة.
(٢) المحرر الوجيز ٢/٢٢٢، محاسن التأويل ٤/٢١٤.
(٣) الآية ١١ إبراهيم.
(٤) الآية ١٠٥ البقرة.
(٥) الآية ٧٥ الحج.
(٦) الآية ١٢٤ الأنعام.

نكر القرآن في ردوده وبيانه الخصوصية التي امتاز بها الرسول على الناس، وهي الرسالة، ثم ذلك حقيقته التي يشارك فيها كل فرد من أفرادهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.(١)

قال ابن عطية: «صدقتم في قولكم: إنهم بشر مثلكم في الأشخاص والخلقة لكن تبايننا بفضل الله ومنّه الذي يختص به من يشاء»(٢) وقال أبو حيان: «سلموا لهم في أنهم يماثلونهم في البشرية وحدها، وأما ما سوى ذلك من الأوصاف التي اختصوا بها فلم يكونوا مثلهم».(٣) فرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم بشر، ويعتريهم ما يعتري البشر، ويجرى عليهم ما يجرى على البشر، ولم يكونوا خارجين عن طباع البشر ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾.(٤)

رابعاً: اتهامهم للنبي - ﷺ - بالجنون والسحر والكهانة والردّ عليهم:

لما فند القرآن الكريم مزاعمهم في بشرية الرسول وبين الحكمة من إرسال الرسل من البشر، انتقل إلى ردّ مفترياتهم في شخص النبي - ﷺ - ورسالته فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾،(٥) وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾،(٦) وقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(٧) وقال: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

(١) الآية ١١٠ الكهف.
(٢) المحرر الوجيز ٣/٣٢٨.
(٣) البحر المحيط ٥/٤٠٠، روح المعاني ٨/٢٨٥.
(٤) الآية ٨ الأنبياء.
(٥) الآية ١٨٤ الأعراف.
(٦) الآية ٤٦ سبا.
(٧) الآية ٢٢ التكوير.

عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾.(١)

قال ابن عطية: «وسبب هذه الآية أن قريشاً رمت رسول - ﷺ - بالجنون، وهو ستر العقول، بمعنى أن كلامه خطأ ككلام المجنون، فنفى الله تعالى ذلك عنه، وأخبره بأن له الأجر، وأنه على الخلق العظيم، تشريفاً له ومدحاً».(٢)

قال القرطبي: «والمفتون المجنون الذي فتنه الشيطان، وقد كان المشركون يقولون: إن بمحمد شيطاناً، فقال تعالى لهم: سيعلمون بأيهم المفتون، أي الشيطان الذي يحصل من مسّه الجنون واختلاط العقل».(٣)

أقول: ذكر الله ثلاث أشياء أقسم الله عز وجل بالقلم على نفي الجنون عن النبي - ﷺ -، وأثبت له الأجر الموصول، وأثنى عليه بالخلق العظيم، ثم بشره وهددهم بأنهم سيعلمون من هو الذي فتن بالجنون. وقال القرآن في رد مفترياتهم أنه شاعر: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،(٤) وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.(٥)

ومن جملة مزاعمهم التي فندها القرآن وأبطلها قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾،(٦) وحكى عنهم في موضع آخر: ﴿وَقَالُوٓاْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ

---

(١) الآية ١-٦ القلم.
(٢) المحرر الوجيز ٥/٣٤٦.
(٣) الجامع القرطبي بتصرف ١٨/٢٢٩.
(٤) الآية ٤٢ الحاقة.
(٥) الآية ٦٩ يس.
(٦) الآية ٥ الفرقان.

﴿إِفۡكٌ مُّفۡتَرٗىۚ﴾[1] وقد أجاب القرآن عن كل هذه المزاعم وأبطلها واحدة واحدة، فأثبت أولاً أن هذا الذي نكروه في حق القرآن هو الظلم والزور فقال: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾[2]، فقد فعل هؤلاء الجاحدون والمنكرون بقولهم هذا ظلماً عظيماً وزوراً كبيراً، حيث وضعوا الباطل موضع الحق، والكذب موضع الصدق[3] ثم قال عز وجل في بيان مصدر هذا القرآن الكريم: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.[4]

وقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧﴾.[5]

وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾[6] وتكذيب الله لهم جاء في آيات كثيرة، وبين كذبهم وتعنتهم في قولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ وفي قولهم ﴿معلم مجنون﴾ وفي قولهم ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ بين ذلك في قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ كيف يكون تعلمه من ذلك البشر مع أنه أعجمي اللسان، وهذا القرآن عربي مبين فصيح لا شائبة فيه من العجمة، فهذا غير معقول، ثم بين شدة تعنتهم بأنه لو جعل القرآن أعجمياً لكذبوه، وقالوا: كيف يكون هذا القرآن أعجمياً مع أن الرسول الذي أنزل عليه عربي كما نص على ذلك القرآن: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾.[7]

---

(١) الآية ٤٣ سبأ.
(٢) الآية ٤ الفرقان.
(٣) تفسير أبي السعود ٦/٢٠٢.
(٤) الآية ٦ الفرقان.
(٥) الآية ٣٧ يونس.
(٦) الآية ١٠٣ النحل.
(٧) الآية ٤٤ فصلت.

بمعنى أقرآن أعجمي ورسول عربي؟ فكيف ينكرون أن القرآن أعجمي والرسول عربي، ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمي مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربي.(١)

أقول: لو كان هذا القرآن تعلمه من الغلام الرومي الحداد أليس كان الأولى أن يدعيه لنفسه لينال به ما نال به محمد - ﷺ -؟ وأقول: قولهم: «معلّم مجنون» هذان أمران متضادان ومتنافيان، لا يثبت أحدهما بثبوت الآخر، ولا يصح الجمع بين كونه معلماً ومجنوناً في آن واحد؛ لأن المجنون لا يكون معلماً ولا يتأثر بالتعليم.(٢)

قال القاسمي: «ثم أشار تعالى إلى وضوح بطلان بهتهم بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير بين، وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة، ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل وما حواه من العلوم، فضلاً أن ينطق به، فضلاً أن يكون معلماً له».(٣)

ويواصل القرآن الكريم في دحضه لشبهات القوم، فقال رداً على قولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾(٤)، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾،(٥) وقال جل وعلا في رده على اقتراح المشركين أن يبدل هذا القرآن: **﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾**، فأجابهم القرآن ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ

---

(١) من كلام الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان ٣/٢٧٦.
(٢) أنظر: البحر المحيط ٥/٥١٩، روح المعاني ٨/٣٤٧.
(٣) محاسن التأويل ٦/٤١٠.
(٤) الآية ٥ الفرقان.
(٥) الآية ٤٩ العنكبوت.

عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]

ومن إجابات القرآن الواسعة التي تفند مزاعمهم في القرآن ما نكره الله تعالى في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.[3]

وقد أتى القرآن في دفاعاته الذاتية بأوجه من البراهين الساطعة والأدلة القويّة لدحض شبهاتهم وتقولاتهم في القرآن ومن أبينها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾،[4] فأخبر سبحانه وتعالى، ونفي أن تكون الشياطين تنزلت به من ثلاثة أوجه:

أحدهما: أنه ما ينبغي لهم، لأن من شأنهم الفساد والإضلال، والقرآن فيه الهدى والنور، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة.

الثاني: ولو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك، فلا يقدرون عليه.

الثالث: حتى لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت حرساً شديداً أو شهباً.[5]

---

(١) الآية ١٦ يونس.
(٢) الآية ٧٥-٨٠ الواقعة.
(٣) الآية ١٩٦ الشعراء.
(٤) الآية ٢١٢ الشعراء.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/٣٨٤.

قال ابن عطية: «لما كان بعض ما قال الكفار أن هذا القرآن كهانة نزلت الآية مكذبة لذلك، لأن الشياطين قد عزلت عن السمع فلا يمكنهم الوصول إلى شيء من ذلك».

وقال الله تعالى في إثبات هذا القرآن ونفي ما زعمه المنكرون: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.(١)

وقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.(٢)

في الآية الأولى أقسم الله تعالى بما يُرى وما لا يُرى مما هو واقع تحت الأبصار وما غاب وخفي عن الأنظار، أن هذا القرآن لكلام الرحمن، يتلوه ويقرأه رسول كريم هو محمد - ﷺ - قال القرطبي: «والرسول ها هنا هو محمد ونسب القول إليه لأنه يتلوه ويبلغه «يتلو عليهم آياته»، وليس القرآن كلام شاعر كما تزعمون، لأنه مباين لأوزان الشعر كلها، فليس شعراً ولا نثراً، وليس هو بقول كاهن يدعى معرفة الغيب لأن القرآن يغاير بأسلوبه سجع الكهان، فالقرآن تنزيل من رب العالمين.(٣)

---

(١) الآية ٤٣ الحاقة.
(٢) الآية ٢٧ التكوير.
(٣) الجامع للقرطبي ١٨/ ٢٧٤.

وفي الآية الثانية نسبه وأضافه إلى جبريل، باعتبار أنه نزل به وعلّمه «علمه شديد القوى ذو مرة».

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾.(١)

خامساً: ردود القرآن على اعتراضهم على نزول القرآن جملة واحدة وبيانه الحكمة من ذلك:

ومن جملة اقتراحات المعاندين والجاحدين التي أجاب عنها القرآن ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾.(٢)

قال المشركون هلا نزل هذا القرآن على محمد - ﷺ - جُملةً واحدة دون أن ينزل مفرقاً كما نراه ونسمعه، وهذا من سوء أدبهم، فقد طلبوا ما لا يعنيهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾، تضمن هذا الرد ثلاث أجوبة، وكل واحد منها يكفي في ردّ اقتراحهم.

الجواب الأول: أنزلناه كذلك مفرقاً لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب وأشد عناية بالرسول - ﷺ -، لكثرة نزول الملك عليه وتجدد العهد به، ويكون له في ذلك تسلية وأنساً.

الجواب الثاني: أنزله مرتلاً وفرّقه حتى يسهل حفظه على الناس، كما أخبر بذلك في قوله تعالى: **﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾**.

الجواب الثالث: عن هذا الاقتراح، أن الله أنزله مفرقاً ولم ينزله جملة

(١) الآية ١١٣ النساء.
(٢) الآية ٣٢ الفرقان.

واحدة حتى يمكن الإجابة عن كل ما يلتمسون به من طعن وقدح في حق الله وحق ملائكته ورسله: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾.

قال الحافظ ابن كثير: «ولا يأتونك بحجة وشبهة ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأفصح من مقالتهم وأحسن تفسيراً»[1] وقال ابن القيم: «فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق، فهي تفسيره وبيانه».[2]

سادساً: ردود القرآن على اعتراضهم أن النبي - ﷺ - ليس من عظماء الرجال:

فلمّا علم المعاندون والمنكرون بتكرير الله الحجج والبراهين أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى جاءوا بالإنكار من وجه آخر، وهو تحكمهم أن يكون الرسول أحد الرجلين العظيمين من مكة أو الطائف مبلغاً عن الله رسالته، فقالوا كما حكاه القرآن عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.[3]

إن كفار قريش استبعدوا أولاً أن يرسل الله بشراً، فلما تقرر أمر موسى وعيسى وإبراهيم ولم يكن لهم في ذلك دفع رجعوا واقترحوا لم كان محمداً - ﷺ - ولم يكن نزول القرآن على رجل من إحدى القريتين عظيم، من مكة والطائف، وكانوا يقولون: ما وجد رسولاً إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب،[4] وقد ذكر الله احتقارهم لرسول الله - ﷺ - ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[5] لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه لكثرة ما له وجاهه وشرفه فيهم.[6]

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٥.

(٢) بدائع التفسير ٣/٢٩٤.

(٣) الآية ٣١ الزخرف.

(٤) تفسير الرازي ١٧/١٥، المحرر الوجيز ٥/٥٣.

(٥) الآية ٤١ الفرقان.

(٦) أضواء البيان ٧/٢٤٤.

فأجابهم الله بالإنكار والتجهيل والتعجب ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.(١) فالأمر إلى الله، وليس لهم، والرحمة معناها هنا النبوة وإن كانت للعموم «الله أعلم حيث يجعل رسالته» و«الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس»، فالله هو وحده الذي يعلم من يصلح لهذا المنصب الشريف العظيم، وهو المدبر لأمر النبوة، ويختار من يتحمل أعباءها، كما أنه تعالى قسم بينهم أمر المعاش والأحوال، وفاوت بينهم، فكذلك قسم النبوة بين عباده المرسلين.

قال ابن عطية: «ثم أخبر تعالى خبراً جازماً بأنه قاسم المعايش والدرجات في الدنيا، ليسخر بعض الناس بعضاً، والمعنى: فإذا كان اهتمامنا بهم أن نقسم هذا الحقير الفاني فأحرى أن نقسم الأهم الخطير».(٢)

سابعاً: ردود القرآن على اقتراحهم أن ياتي بقرآن غير هذا أو يبدله:

من صور تعنت المشركين واقتراحاتهم التي فندها القرآن وأجاب عنها مطالبتهم الرسول – ﷺ – أن يأتينهم بقرآن غير هذا أو يبدله، وقد نص القرآن على هذا الاقتراح بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾.(٣)

ذكر الإمام الألوسي أن الآية نزلت في جماعة من قريش قالوا للنبي: (إن كنت تريد أن نؤمن لك فأت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى، وليس فيه ما يعيبها، أو بدله، فأجعل مكان آية عذاب آية رحمة، ومكان حرام حلالاً، ومكان حلال حراماً».(٤)

---

(١) الآية ٣٢ الزخرف.
(٢) المحرر الوجيز ٥/٥٣، انظر روح المعاني ١٤/١٢١.
(٣) الآية ١٥ يونس.
(٤) روح المعاني ١١/٨٥.

لقن الله نبيّه الرّد القاطع على اقتراحهم وتعنتهم فقال: ﴿**قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم**﴾ أي لا يصح لي بحال من الأحوال أن أبدل هذا القرآن من عند نفسي ومن جهتها، وإنما أنا أبلغكم ما أنزل الله عليّ منه، لأني أخاف إن عصيت ربي بالتغيير والتبديل عذاب يوم عظيم، ولا تملكون لي من الله شيئاً.

ثم لقن الله رسوله رداً آخر عليهم فقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] أي قل لهم لو شاء الله تعالى أن لا أتلو عليكم هذا القرآن لفعل، ولو شاء أن يجعلكم لا تدرون منه شيئاً لفعل أيضاً، فأنتم تعلمون أني قد مكثت فيما بينكم مدة طويلة من الزمن قبل أن أبلغكم هذا القرآن، حفظتم خلالها أحوالي، وأحطتم خبراً بأقوالي وأفعالي، وعرفتم أني ما قرأت كتاباً، ولا تعلمت من أحد، مما يشهد أن هذا القرآن إنما هو من عند الله.[2]

ويقول الزمخشري: (يعني إن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أمّي لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علم فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً يبهر كل كلام فصيح، ويعلو على كل منظوم ومنثور، مشحوناً بعلوم من علم الأصول والفروع، وأخبار مما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولا يخفى عليكم شيء من أسراره، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك، ولا عرّفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به[3]، دل ذلك على أنه تنزيل من حكيم حميد.

ثامناً: ردود القرآن على تعللهم بالتخوف إن آمنوا مع النبي - ﷺ -

ولما أعيتهم الحيل في دفع أجوبة القرآن وردوده صاروا يتعللون بعلل واهية، فقال بعض عقلائهم ممن غلبهم الحياء على أن يكابر ويجاهر بالتكذيب

---

(١) الآية ١٦ يونس.

(٢) الجامع للقرطبي ٨/ ٣٣٠، تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٥.

(٣) الكشاف ٢/٣١٩.

وغلبه إلفُ ما هو عليه من حال الكفر على الاعتراف بالحق: إن نتبع ما جئت به من الهدى تتخطفنا العرب، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾،(١) قال كفار قريش إن اتبعناك على دينك وتركنا ديننا نخاف أن تتخطفنا العرب، فيجتمعون على محاربتنا، ويخرجوننا من أرضنا.

قال الألوسي: «والآية نزلت في الحارث بن عثمان حيث أتى النبي - ﷺ - فقال: نحن نعلم أنك على الحق، ولكن نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب، فرد الله عليهم خوف التخطف»،(٢) وفي هذه الآية اعتراف منهم أن ما جاء به هو الحق، وأنه الهدى، ولكنهم يخافون.

فأجابهم الله وأزال تعلقهم بهذه الشبهة فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾،(٣) قال القرطبي: «أي ذا أمن، وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمنهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوهم فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم».(٤)

وقد فند القرآن هذا الاعتذار وأزاله، فإن الرجل كان يلقى قاتل أبيه وأخيه في الحرم فلا يتعرض له، وتجبي إلى الحرم ثمرات كلّ أرض وبلد رزقاً من الله عز وجل، ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾(٥) ببركة دعوة أبيهم إبراهيم فقال: ﴿وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً ءآمناً وارزق أهله من الثمرات من ءآمن منهم بالله واليوم الآخر﴾(٦) وقال ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ

---

(١) الآية ٥٧ القصص.
(٢) روح المعاني ١١/١٤٤.
(٣) الآية ٥٧ القصص.
(٤) الجامع للقرطبي ١٣/٢٦٦.
(٥) الآية ٣-٤ قريش.
(٦) الآية ٢٦ البقرة.

﴿إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1] فكيف يكون الحرمُ آمناً لهم في حال كفرهم، ولا يكون آمناً لهم في حال إسلامهم؟ قال أبو حيان: «قطع الله حجتهم بهذا البيان الناصع، إذا كانوا وهم كفار بالله عبّاد أصنام قد أمنوا في حرمهم والناس في غيره يتقاتلون، وهم مقيمون في بلد غير ذي زرع يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات، فكيف إذا آمنوا واهتدوا».[2]

تاسعاً: ردود القرآن على طلبهم للآيات الحسية:

ولما أجاب القرآن عن كل مقترحاتهم بالأدلة الكافية والبراهين المقنعة تمادى المعاندون في طلب المزيد من الآيات الحسية، ونكر القرآن هذه الطلبات منها ما هو محدد بنوع معين، ومنها ما هو غير محدد.

ومثال الأول قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾.[3]

لما تبين عجزهم ولزمتهم الحجة وغلبوا على أمرهم أخذوا يتعللون باقتراح آيات حسية كما نكرتها الآيات عناداً ومكابرة، ولما تضمن اقتراحهم ما هو مستحيل في حق الله تعالى، وهو أن يأتي بالله والملائكة قبيلا، أمر الله رسوله - ﷺ - بالتسبيح والتنزيه عمّا لا يليق به.[4]

قال جل وعلا: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ أي ما أنا إلا

---

(١) الآية ٣٧ إبراهيم.
(٢) البحر المحيط ٧/ ١٢٠.
(٣) الآية ٩٣ الإسراء.
(٤) انظر البحر المحيط ٦/ ٧٨.

رسول من البشر، بعثني الله إليكم، ولا يمكنني أن أقترح على الله شيئاً من ذلك، فاكتفى بالتنزيه.

ومثال الثاني في طلب الآيات دون تحديد نوعها قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[١] وقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾،[٢] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[٣] وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾.[٤]

وكانوا يريدون بذلك هلا نزل على محمد معجزة تدل على صدقة كالناقة والعصا والمائدة، وكان هذا منهم جحوداً وإنكاراً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا عن معارضته.[٥] وقد لجوا في طلب الآيات بقولهم ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾[٦] فأجاب القرآن عن كل اقتراحاتهم بأجوبة وردود محكمة المعنى واضحة البرهان تمتاز بالإيجاز والقصد.

وأول هذه الردود فيها بيان أن الله عز وجل له القدرة التامة على أن يأتيهم بما سألوا من الآيات لا يعجزه شيء ولكن لا يعلمون عاقبة ما في نزول الآيات المقترحة، لأن الله قضى إذا أنزل الآيات التي اقترحوها وهم على كفرهم قضى عليهم بالعذاب.

وثمة أمر آخر يظهر من مجموع ردود القرآن: أن الآيات التي طلبوها

(١) الآية ٣٧ الأنعام.
(٢) الآية ١٠٩ الأنعام.
(٣) الآية ٢٠ يونس.
(٤) الآية ٧ الرعد.
(٥) الجامع القرطبي ٦/٤١٩.
(٦) الآية ١٢٤ الأنعام.

وألحوا في نزولها تكون ملجئة للإيمان، وحينئذ يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾،(١) ولذلك كانت تختم بعض الردود بقوله ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وبقوله: ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ قال الألوسي: «فلا يدرون أن عدم تنزيلها مع ظهور قدرته سبحانه وتعالى عليه لما أن في تنزيلها قلعا لأساس التكليف المبنى على قاعدة الاختيار، أو استئصالاً لهم بالكلية».(٢)

ثم بين عز وجل الحكمة في عدم إجابتهم لمقترحاتهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾(٣) فأخبر تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال، وقد اقتضت حكمته تعالى أن لا يعاجلهم بالعذاب، والمعنى: وما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها المنكرون والجاحدون إلا تكذيب من سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله.(٤)

ثم نفى الرسل جميعاً أن تكون المعجزات والخوارق والآيات بأيديهم، فقالوا جميعاً: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾،(٥) ونفى الله عن الرسل أن يأتوا بالآيات: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.(٦) ثم لقن الله الرسل الرد بأن الآيات المقترحة لا يملكونها فهي عند الله فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾.(٧) وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ

---

(١) من الآية ٤ الشعراء.
(٢) روح المعاني ٥/٢٠٦.
(٣) من الآية ٥٩ الإسراء.
(٤) انظر تفسير ابن كثير ٣/٥١.
(٥) من الآية ١١ إبراهيم.
(٦) من الآية ٣٨ الرعد و٧٨ غافر.
(٧) الآية ١٠٩ الأنعام.

إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.(١)

قال أبو حيان: «هذا أمر بالرد عليهم، وأن مجيء الآيات ليس لي إنما ذلك لله تعالى، وهو القادر عليها ينزلها على وجه المصلحة كيف شاء لحكمته، وليست عندي فتقترح عليّ».(٢)

قال الألوسي: «أمرها في حكمه وقضائه خاصة يتصرف فيها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة، لا تتعلق بها قدرة أحد ولا مشيئته استقلالاً ولا اشتراكاً بوجه من الوجوه، حتى يمكنني أن أتصدى لإنزالها»،(٣) ولذلك عقب على مقترحاتهم بقوله ﴿قل سبحان ربي﴾ نزه الله تعالى ان يتطاول على الله في طلب إجابتهم، واكتفى بتنزيه الله.

وتتواصل ردود القرآن على طلب المزيد من الآيات، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾،(٤) وقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾(٥) فإن هذه المطالب هي من علم الغيب الذي استأثر الله به ووظيفة الرسول الإنذار والتخويف لمن عاند وجحد بسوء المصير والهداية التي هي أقوم لمن آمن واستسلم.

عاشراً: ردود القرآن على زعمهم عدم كفاية الأدلة على النبوة:

ومن ردود القرآن على مطالبهم الآيات قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾.(٦)

---

(١) الآية ٥٠ العنكبوت.
(٢) البحر المحيط ٤/٣٠
(٣) روح المعاني ٦/٦٧٥.
(٤) الآية ٢٠ يونس.
(٥) الآية ٢٧ الرعد.
(٦) الآية ١٣٣ طه.

قال أبو حيان: «أي القرآن الذي سبق التبشير به وبإيحائي من الرسل به الكتب الإلهية السابقة المنزلة على الرسل، والقرآن أعظم الآيات في الإعجاز، وهي الآية الباقية إلى يوم القيامة».(١)

والاستفهام للتوبيخ والتقرير، أجهلوا ولم يكفهم اشتمال القرآن على بيان ما في الصحف الأولى، فإن هذا القرآن قد بشرت به الكتب السابقة فهو أعظم الآيات في الإعجاز، ويشبه الآية السابقة في الرد على المعاندين في طلب الآيات قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.(٢)

هذا جواب لقولهم ورد على طلبهم في قوله: ﴿لو لا انزل عليه ءآيات من ربه﴾، قال الألوسي: «كلام مستأنف، وأمره من جهته تعالى، ردًا على اقتراحهم وبياناً لبطلانه، والهمزة للإنكار والنفي، فالقرآن آية مغنية عن سائر الآيات وهو الناطق بالحق يتلى عليهم، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد وجودها وتكون في مكان دون مكان».(٣)

فدلت الآية على أنه يجب الاستغناء بالقرآن عن غيره وإن الرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقص، فالقرآن وحده تقوم به الحجة، وتتضح به المحجة، وفيه غناء وكفاية.(٤)

قال ابن تيمية: «فإن القرآن من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به، وقد اجتمع في القرآن من الآيات ما لم يجتمع في غيره، فإنه هو الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه والحكم، وهو الدعوى، وهو البينة على الدّعوى، وهو الشاهد والمشهود به».(٥)

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٧٠.
(٢) الآية ٥١ العنكبوت.
(٣) روح المعاني ١٢/ ٨، البحر المحيط ٧/ ١٥٢.
(٤) انظر الجامع للقرطبي ١٣/ ٣١٧.
(٥) دقائق التفسير ٢/ ٢٩٨.

لما فند القرآن جميع مقترحاتهم وردّها وأبطل مزاعمهم وضاقت عليهم الحيل. وعييت بهم العلل راحوا يحلفون بالله لئن تحققت لهم هذه المطالب المتعنته ليؤمنن، حتى طمع بعض المسلمين ممن كانوا قد آمنوا أن يجيبهم النبي - ﷺ - وتمنوا ذلك.

فأجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.(١)

وقد وجد من بعض المسلمين من يتمنى أن يجيبهم الله إلى طلبهم، ويقترحون على رسول - ﷺ - أن يسأل ربه هذه الآيات التي يقترحها المقترحون طمعاً في إسلامهم، فأجابهم الله بهذه الآية، فما وقع لهم في أول مرة ومنعهم من الهدى يمكن أن يتكرر وقوعه كذلك بعد نزول الآية فيمنعهم من الهدى كرة أخرى.(٢)

قال الألوسي: «وكان المؤمنون يتمنون نزولها، طمعاً في إسلامهم،(٣) وقال الزمخشري: «يعني أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وأنتم لا تدرون بذلك، وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها وهم لا يدرون ما سبق علم الله به من أنهم لا يؤمنون».(٤)

بعد أن بين القرآن في ردوده المتوالية التي فيها الكفاية والإقناع تقوم بها الحجة وتتبين بها المحجة، بين أن هؤلاء الجاحدين والمنكرين لا يؤمنون لا لنقص في الحجة، ولا لغموض في المحجة، وإنما هو الإنكار والجحود، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

---

(١) الآية ١٠٩ الأنعام.
(٢) الظلال ٣/١١٨٦.
(٣) روح المعاني ٥/٣٦٨.
(٤) الكشاف ٢/٥٤.

شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾.(١)

قال أبو حيان في تفسير هذه الآية: «لو آتيناهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة في قولهم ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ وحشرنا كل شيء عليهم من السباع والدواب والطيور وشهدوا بصدق الرسول لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله والغرض التيئيس من إيمانهم»،(٢) لأن القرآن فيه الغناء والكفاية ومثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾(٣) لو عاينوا نزول الكتاب من السماء لقالوا ما هذا إلا سحر كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾(٤) لو أن الله عز وجل فتح لهم باباً من أبواب السماء وظلوا يصعدون فيه ورأوا من آيات الله لقالوا لفرط عنادهم: إنما سدت أبصارنا وخدعت وسحرنا محمد - ﷺ -.

الحادي عشر: ردود القرآن على المنكرين لليوم الآخر:

من أوسع الردود وأبلغها وتنوعها، والتي أخذت حيزاً كبيراً من كتاب الله، وكثر فيها جدل المنكرين والجاحدين: ردود القرآن على المنكرين والجاحدين ليوم المعاد، وقد أفاض القرآن الكريم في الاستدلال على قضية البعث والنشور، فلا تكاد تقرأ سورة من الطوال أو من المئتين أو المثاني، أو من المحكم إلا وتجد الحديث عن هذه القضية، وبمختلف الطرق والأساليب، وقد ناقش القرآن هذه المسألة وجلاّها بما يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل المنطق والجدل العقيم، فإن القرآن قد قرر إثبات البعث والنشور بأبلغ وجه وأحسنه.

---

(١) الآية ١١١ الانعام.
(٢) البحر المحيط بتصرف ٤/٢٠٨.
(٣) الآية ٧ الانعام.
(٤) الآية ١٥ الحجر.

فقد حفل كتاب الله بالبعث والنشور لأنه هو المعبر ليوم الآخر، وهو البوابة، فكل ما أخبر به القرآن الكريم عن أهوال يوم القيامة وأحوالها من حساب وعقاب وجنة ونار موقوف على صحة إثبات البعث والنشور، ولذلك ركز القرآن الكريم على هذا الباب من أبواب عقيدة الإيمان بيوم الآخر، ولم يهمل الجانب الآخر.

وقد عالج القرآن هذا النفي والإنكار من قبل المكذبين بوسائل وطرق شتى[1]، عالج شبهاتهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع، والحجة الدامغة، والتذكير البالغ، تارة يلفت أنظارهم إلى خلق أكبر من خلقهم، وأخرى ينكرهم بأنفسهم وأطوار نشأتهم، وتارة أخرى يوجههم إلى ما تخرجه الأرض الميتة من الزروع والثمار، ومرة أخرى بأخبار الله الصادقة المؤكدة، وإذا لم يفلح هذا ولا ذاك تحداهم بأن يكونوا: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ وإذا كنتم كذلك واحداً من الثلاثة ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[2].

شبهات المنكرين والجاحدين:

سجل القرآن الكريم شبهات المنكرين، وكررها في أكثر من موضع، وحاصلها: أنهم استبعدوا أن هناك حياة بعد الموت والفناء، وقد ذكر القرآن هذه الشبهات، منها: قوله تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[3] والذي يدل عليه القرآن أن العجب حصل للجميع من هذه القضية، إلا أن المؤمنين نظروا فصدقوا بأخبار الله، والكافرون استبعدوا ذلك[4]، وإنكار البعث والنشور قديم، وقد حدثنا القرآن الكريم عن صدور الإنكار والاستبعاد من تلك الأمم

(١) لا تنسى أخي القارئ إن وسائل القرآن وطرقه في حد ذاتها غايات ومقاصد، وليس كما الشأن في التربية الحديثة.
(٢) الآية ٥٠، ٥١ الإسراء.
(٣) الآية ٣ سورة ق.
(٤) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥/١٥٦.

المكذبة لرسلها، فقال: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، والآيات في مثل هذا كثيرة.

وقد قلد هذا الإنكار وهذا التكذيب كفار قريش كما أخبر القرآن عنهم: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾[2]، وأكدوا هذا النفي بالقسم: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[3] وحاصل شبهتهم كما قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[4] وكما قال بعضهم لبعض: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[5]، وقال قائلهم: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[6].

وتقرير شبهتهم كما وضحتها الآيات القرآنية الكثيرة أن اختلاط أجزاء أجسادهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص[7].

أجوبة القرآن وردوده على المنكرين والجاحدين

استقرأت القرآن الكريم وتتبعت آياته وسوره التي ترد على المنكرين والجاحدين، وإثبات هذه القضية التي كثر فيها المراء، فرأيت أنواعاً متعددة، وطرقاً شتى، وبمختلف الأساليب، تجمع بين الدليل والمدلول في آن واحد، وتجمع بين البيان والبرهان وبين الحكم والأحكام ولا يستطيع القلم أن يصور

---

(١) الآيات ٨١ – ٨٣ المؤمنون ومثلها ٦٧، ٦٨ النمل.
(٢) الآية ٧ التغابن.
(٣) من الآية ٣٨ النحل.
(٤) من الآية ١٠ السجدة.
(٥) من الآية ٧ سبأ.
(٦) من الآية ٧٨ يس.
(٧) انظر: بدائع التفسير لابن القيم ٤/١٩٣.

ما أحسسته، وأنا أقلب الطرف في هذه الردود من روعة وجمال وأحكام وحكم وبسط وإيجاز، ولا عجب في ذلك فهو وجه من وجوه الإعجاز القرآني «..ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا ينقضي عجائبه...»[١]، وهذه الردود القرآنية على ذوي الجحود والإنكار تتنوع على النحو التالي:

أولاً: إخبار الله عز وجل بانه يحيي الموتى: أخبر الله عز وجل في كتابه الكريم أخباراً كثيرة بأنه هو الذي يحيي ويميت، وأنه القادر وحده على إعادة الموتى، وأخبار الله حق وصدق، وتقع كما أخبر وقد أكد هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۞ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[٢]، وقد وقع بمثل ما أخبر في الدنيا، أخبر الله في سياق نعم الله على بني إسرائيل أنه أحياهم بعد أن أماتهم، وأخبر أنه أحيا قتيل بني إسرائيل لما ضربوه ببعض أجزاء البقرة، وكذا أحيا الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، بعد أن أماتهم[٣]، ثم ذكر الله عز وجل قصصاً عملية لإثبات البعث والنشور بعد الموت والفناء، الأولى تتعلق بالرجل المجادل الذي حاج إبراهيم في قدرة الله فبهت، والثانية تتعلق بالرجل الصالح الذي مر على القرية الخاوية، فأراه الله مثالاً من نفسه على الإعادة والثالثة، قصة إبراهيم الخليل مع الطيور الأربعة، وفيها الدليل الحسي المشاهد على الإعادة بعد الفناء[٤].

ثانياً: ردود القرآن على استبعادهم للخلق الجديد بالعلم والقدرة. قال تعالى جواباً للمنكرين والجاحدين: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾[٥] وقال أيضاً: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[٦] وقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي في فضائل القرآن ١٧٢/٥.
(٢) الآية ٥، ٦ والذاريات.
(٣) الأول في الآية ٥٦، والثاني في الآية ٧٣، والثالث في الآية ٢٤٣ البقرة.
(٤) تفسير ابن كثير ٥٧/١، أضواء البيان ١٧٠/٣ في الآيات ٢٥٨ – ٢٦٠ البقرة.
(٥) الآية ٤ سورة ق.
(٦) الآية ٣، ٤ القيامة.

﴿نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾[1] فالله عز وجل يعلم ذرات هذه الأجساد في التراب وقادر على إعادتها خلقاً ويكسوا العظام لحماً[2].

فالله عز وجل قادر على جمع عظمه ولحمه، وأن يعيد أطراف أصابعه التي هي أصغر أعضائه وأدقها أجزاء[3].

ثالثاً: ردود القرآن على المنكرين والجاحدين بلفت أنظارهم إلى الخلق الأول: وقد رد القرآن في مواضع كثيرة على هؤلاء المخالفين، ولفت أنظارهم إلى التفكر في الخلق الأول كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4] وقال: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[5]، وبين أن الإعادة أيسر وأسهل في ميزان البشر فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾[6].

إن هؤلاء المنكرين والجاحدين للبعث والنشور قد نسوا الإيجاد الأول ولذلك جاء في ضمن ردود القرآن عليهم التذكير بالخلق الأول كما في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾[7] وقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[8] وذكره بأطوار خلقه في أكثر من موضع كما جاء في أول سورة الحج [والمؤمنون] وغيرهما: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

---

(١) من الآية ٢٥٩ البقرة.
(٢) انظر: فتح القدير ٥/٤٧٢ تفسير ابن كثير ٤/٤٧٨.
(٣) فتح البيان ١٤/٤٣٦.
(٤) الآية ٧٩ يس.
(٥) من الآية ٥١ الإسراء.
(٦) من الآية ٢٧ الروم.
(٧) من الآية ٧٨ يس.
(٨) الآية ٦٧ مريم.

مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(١) **رابعاً**: ردود القرآن على المكذبين والجاحدين يلفت أنظارهم إلى ما هو أكبر وأعظم من ردود القرآن على الجاحدين ما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾(٢)، نكر الله في هذه الآية ونظيراتها ردوداً قوية محكمة ترد على المنكرين والجاحدين، أهم أشد خلقاً وأصعب إيجاداً واختراعاً أم من خلقنا من المخلوقات التي هي أعظم وأكبر، وقد جاء الجواب مصرحاً به أن السماء أشد خلقاً منهم في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣)، لأن من المعلوم بالضرورة أن من خلق الأعظم الأكبر قادر على أن يخلق الأصغر الأقل، وقد جاء موضحاً الاستفتاء المنكور في قوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا﴾(٤) وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٥) وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٦).

خامساً: من ردود القرآن وأجوبته على المنكرين والجاحدين ليوم البعث،

---

(١) الآية ٥ الحج ومثلها في الآية ١٢ – ١٤ المؤمنون.
(٢) الآية ١١ والصافات.
(٣) الآية ٥٧ غافر.
(٤) الآية ٢٧ والنازعات.
(٥) الآية ١٥ سورة ق.
(٦) الآية ٣٣ الأحقاف ونحوها في يس ٨١ والإسراء ٩٩.

أنه لفت أنظارهم إلى إحياء الأرض بالمطر بعد موتها، وهذا نوع من أدلة القرآن على وقوع البعث والنشور، لأن ذلك مما يحسونه ويشاهدونه في حياتهم، فقد قرّب الله لهم الإحياء بعد الموت بالزروع والنبات في الأرض الموات، وهي ظاهرة مألوفة متكررة، وقد استدل القرآن على المعاد بهذه الظاهرة بضرب المثل، فشبه الجثث الهامدة والعظام البالية بالأرض الميتة، وشبه خروج الناس أحياء من قبورهم بخروج النبات من الأرض التي تحركت بالمطر وربت وأنبتت قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾(١) وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، والآيات في مثل هذا المعنى كثيرة(٣)، قال أبو الحسن الماوردي: «جعل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها دليلاً لمنكري البعث على إحياء الخلق بعد الموت استدلالاً بالشاهد على الغائب»(٤).

سادساً: بيان حكمة الله جل وعلا في مخلوقاته:

بيّن الله عز وجل في ردوده على منكري البعث الحكمة من خلق هذا الإنسان، وباقي مخلوقاته، فلم يخلقه عبثاً، بل لغاية وحكمة، وهو الابتلاء بالتكاليف ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾(٥) وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾(٦) وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(٧) وقال عن

---

(١) الآية ٩ فاطر انظر ابن كثير ٢/٢٣٢.
(٢) الآية ٣٩ فصلت انظر الخازن ٢/٢١٣.
(٣) منها ١١ الزخرف ٥٧ الأعراف ٥٠ الروم ٥ الحج.
(٤) النكت والعيون ٣/٥٠٦.
(٥) الآية ٣ الدهر.
(٦) الآية ١١٥ المؤمنون.
(٧) الآية ٢٧، ٢٨ سورة القيامة.

بقية مخلوقاته: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1] فأنكر الله على المعاندين والمنكرين أن يكون الله عز وجل خلق الإنسان سدى وعبثاً بدون أن يؤمر وينهى، وأنه لا يرجع إليه ليجازيه على عمله خيراً أو شر، ونفى الله عز وجل أن يكون خلق السموات والأرض باطلاً، كما هو ظن الكفار، ولذلك نزّه نفسه أن يكون قصد ذلك فقال: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ نزّه نفسه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، ومنها أن يكون خلق الإنسان عبثاً.

ومن ثم كان ولابد من حياة أخرى بعد الموت لينال كل جزاء عمله ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾[2] وقال ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[3].

قال الألوسي: «تضمنت الآية الدليل على وقوع البعث حيث إن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح، والتكاليف لا يتحقق إلا بمجازاة، هي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة».

سابعاً: من ردود القرآن وأجوبته التحدي للمنكرين والجاحدين:

هذا نوع من الأنواع الكثيرة التي تضمنها كتاب الله في ردوده على المخالفين والمكذبين، فإذا لم يفلح معهم هذا التنكير، ولا ذلك انتقل معهم القرآن في ردوده ومناقشاته إلى مقام آخر، وهو مقام التحدي والتعجيز فدعاهم إلى أن يكونوا حجارة، ثم تدرج معهم إلى أن يكونوا أقوى منها في الصلابة، وهو الحديد، ثم انتقل بهم إلى أن يكونوا خلقاً آخر مما يعظم عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه مما هو أشد امتناعاً وصلابة فإن

---

(١) الآية ٢٧ ص. وانظر: أضواء البيان ٥/٥٦٦.
(٢) الآية ٣٥، ٣٦ القلم.
(٣) الآية ٢٨ ص.

الله سيعيدكم ويحييكم ويبعثكم كما فطركم أول مرة فإن الرفات والعظام مساو للحجارة والحديد وغيرهما بالنسبة إلى قدرة الله قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[1].

قال ابن جرير: إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة في الشدة أو حديداً في القوة، فسيعيدكم الذي فطركم أول مرة»[2] ولو كنتم أبعد شيء من الحياة، وأشد صلابة، فإن الله قادر على أن يبعثكم[3].

قال الشيخ الطاهر بن عاشور: احتج عليهم القرآن في الإعادة بالفطرة الأولى من حيث خلقهم واخترعهم من تراب فكذلك يديهم»[4] والله أعلم، ما أجمل وألذ الاشتغال بكتاب الله تدبراً وفهماً وتفقهاً! فعلى رجال التربية والتعليم أن يستفيدوا من أجوبة القرآن وردوده المتنوعة في مجال الدعوة والتعليم والتذكير، والله أعلم.

خاتمة البحث:

١ - من نتائج هذا البحث وثمراته: بيان أن القرآن الكريم لا يزال غضّاً طرياً للتأمل والتدبر، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وإنه قد اشتمل على ردود تضمنت حججاً عقلية ينقاد لها عقل المخاطب، ويذعن سواء كان من المؤمنين المنقادين لهداية القرآن أو كان من الجاحدين المعاندين، لذلك اتجه القرآن في مخاطبة هذه الصنف من البشر إلى الإلزام العقلي بالبراهين العقلية التي يسلم لها أهل العقول السليمة.

---

(١) الآية ٥٠، ٥١ الإسراء.
(٢) فتح البيان ٧/٤٠٤، محاسن التاويل ٦/٤٦٨، البحر المحيط ٦/٤٤.
(٣) التحرير والتنوير ١٣/٤٦٣.

ومن تأمل القرآن الكريم علم أن هذه الردود القاطعة والبراهين الساطعة من لدن حكيم خبير جاءت محكمة الألفاظ واضحة المعاني، فلا يسعه إلا أن يجزم ويقطع بأن هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد.

وإن هذه الشبهات والطعون والأمثال التي ضربوها للنبي - ﷺ - والاقتراحات والاعتراضات يظهر عليها الحيرة والاضطراب والتناقض العجيب والتنافر المعيب ﴿**فهم في امر مريج**﴾.

٢ - من أهم ما يستفاد من هذا البحث: بيان أن القرآن كلّه من أول آية إلى آخر آية كالسورة الواحدة، لا يمكن التفريط في أي جزئية من جزئياته، ولا يمكن العمل ببعض ما جاء فيه، ولا يمكن الاقتصار على بعضه، ولذلك كان حمزة وهو أحد القراء السبعة لا يبسمل بين السورتين، وذكر ابن هشام في مغني اللبيب عن أبي علي الفارسي، أن القرآن كله كالسورة الواحدة.(١)

أقول: ولذلك تجد في القرآن أن ردّ الفرية، ودحض الشبهة. قد يكون بعدها مباشرة، وقد يفصل بينهما موضوع طويل، وقد يكون الاعتراض والشبهة في سورة والرد والجواب عنها في سورة أخرى لا تليها، بينهما سور كثيرة، فمثال الأول مما يقع فيه الرد بعد الشبهة مباشرة قوله تعالى: ﴿**إنما يعلمه بشر**﴾ الرد السريع المباشر ﴿**لسان الذي يلحدون إليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾، ومثال الثاني مما يقع فيه الرد على الشبهة في السورة نفسها وبينها فصل طويل يكاد ينسيك موقع الشبهة قوله تعالى في آخر سورة ص: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾(٢) فهذا جواب وردّ لقولهم في أول السورة كما حكاه القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾(٣) وبينهما أكثر من ستين آية، وقوله عز وجل في آخر السورة: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/٢٧.
(٢) الآية ٦٥ سورة ص.
(٣) الآية ٤ سورة ص.

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾[1] هو جواب ورد لقولهم في أول السورة: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾،[2] وقوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾[3] هو جواب وتفنيد لزعمهم كما حكاه القرآن في أول السورة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.[4]

ومثال مما تقع فيه الشبهة في سورة، ويقع الجواب عنها في سور أخرى كثير، منه كما حكاه القرآن عنهم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[5] والجواب عن هذا الزعم الباطل جاء في سور أخرى متعددة، قال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[6] وجاء رده في سور أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[7]. ومما حكاه القرآن عنهم في سورة المؤمنون: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾[8] والجواب والرد وقع في سور أخرى منها قوله تعالى: ﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾[9] وقوله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.[10]

فردود القرآن وأجوبته لا تزال تفند كل ما قيل، وما قد يقال، إذ هي تلقين لنا بالرد على السفهاء، فعلينا أن نفزع إلى القرآن عند ردّ كل ضلالة وكل شبهة وكل اعتراض تحقيقاً لوعد الله الصادق ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾.

وأخيراً.. فليزن طلاب علم هذا الزمن تعليمهم بما جاء في القرآن الكريم، ولينظروا أين مكانهم من فهم القرآن والتفقه فيه، وما حظهم من هدايته، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) الآية ٦٦ سورة ص.
(٢) الآية ٥ سورة ص.
(٣) من الآية ٧٠ سورة ص.
(٤) من الآية ٧ سورة ص.
(٥) من الآية ٦ الحجر.
(٦) الآية ٣ القلم.
(٧) من الآية ٢٢ التكوير.
(٨) من الآية ٧٠ المؤمنون.
(٩) من الآية ١٨٤ الأعراف.
(١٠) من الآية ٤٦ سبأ.

فهرس مصادر البحث

١ – الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، ت ٩١١ هـ ط بيروت ١٤٠٧ هـ

٢ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الامين الشنقيطي، ط بيروت.

٣ – البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، ط دار المعرفة، بيروت ١٣٩١ هـ

٤ – بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم جمع يسري السيد، دار ابن الجوزي، الدمام ١٤١٤هـ.

٥ – البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦ – التحبير في علم التفسير لجلال الدين السيوطي، ط دار المنار، القاهرة.

٧ – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ط دار المعرفة، بيروت.

٨ – تفسير عبدالحميد بن باديس، منشورات مؤسسة المعارف – الجزائر.

٩ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط دار المعرفة، بيروت.

١٠ – تفسير الفخر الرازي «مفاتيح الغيب»، ط دار الفكر، بيروت.

١١ – تفسير أبي السّعود، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢ – التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور، ط دار التونسية، تونس.

١٣ – الجامع لأحكام القرآن لأبن عبدالله القرطبي، ط دار الكتاب، بيروت.

١٤ – روح المعاني لشهاب الدين الألوسي، ط دار الفكر، بيروت.

١٥ – زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦ – دقائق التفسير لابن تيمية، ط مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت.

١٧ – استخراج الجدل من القرآن الكريم لناصح الدين الحنبلي، ط الفرزدق التجارية، بيروت.

١٨ – شرح الطحاوية لعلي بن محمد ابن العز الحنفي، ط مكتبة المعارف، الرياض.

١٩ – صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، ط دار الفكر، بيروت.
٢٠ – في ظلال القرآن لسيد قطب، ط دار الشرق، بيروت.
٢١ – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط بيروت.
٢٢ – محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣ – المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤ – معجم مفردات الراغب الأصفهاني، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥ – مجلة «المرابطون» العلمية منشورات معهد العلوم العربية والإسلامية، أنوا كشوط.
٢٦ – معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي، ط الدار العلمية، بيروت.
٢٧ – مناهج الجدل في الغقرآن الكريم د. زاهر الألمعي، ط الفرزدق، بيروت.